لا أرانــي

رواية بقلـم

أمل الأصيل

إهــداء

إلى ثلاثة أصدقاء أحبهم كثيرًا... جمعنا العلم أعوامًا قليلة وفرقتنا الحياة... سنظل أصدقاء وأحبة رغم بُعد المسافات وانقطاع اللقاء.

الرائعة دائمًا: إيمان فكري

المتألقة باستمرار: سيمون سالم

البطلة الجميلة: هدى الريدي

هذه الرواية (لا أراني) لأمل الأصيل هي ضمن الروايات الفائزة في مسابقة الرواية الثانية لدار السعيد للنشر والتوزيع عام 2019.

1

الوحيد الذي لم أكن أستطيع أن أراه هو وجهي.

استيقظتُ اليوم على كابوسٍ افترسني طوال الليل... وظلت صور أحداثه دائرة في رأسي حتى بعد أن فتحت عينيّ... رأيتُ وجهي مرسومًا على المرايا وفي انعكاس الزجاج وعلى أي مُسَطَح مائي كنت أمر بجواره أو حتى أُشاهده على انعكاس زجاجي أو شاشة تليفزيون... ثم يحدث أن تتجمع كل تلك الوجوه التي هي على هيئة صورتي وتبدأ في مهاجمتي والالتصاق بي، كنتُ أجري هربًا منها لكنها ظلت تطاردني وتلتصق بي... أصبح كل جسمي مُغطى بوجهي!... وأنا لا أدري ما هذا، وظللتُ طوال الحلم أجري وأحاول الهروب من وجهي فلا أستطيع.

قمتُ من فراشي مُنهكة من شدة الجري في الحلم وكأنني كنتُ أجري في الحقيقة، وضعتُ كلتيّ يديّ فوق وجهي وكأني أطمأن إلى أنه مازال في مكانه، وقد كان... ثم ذهبتُ إلى المرآة لأنظر لبطل هذا الكابوس المزعج لكني صُعقت مما شاهدت... كنتُ أقف أمام المرآة خالية من أي وجه... يظهر كل جسمي وحتى شعري لكن لا وجه لي! أصبحت منطقة الوجه ضبابية تمامًا وكأنها سحابة على وشك أن تُمطر... دققتُ النظر أكثر، أغلقتُ عينيّ وفتحتهما أكثر من مرة، ما أراه هو سحابة بلا شك، يختلط فيها الأبيض بقليل من الرمادي؛ ما هذا؟... أهو تأثير الحلم يتبعني في اليقظة أم أني مازلت أحلم؟!

أخذتُ أتحسس وجهي بيديّ الاثنتين فوجدتُ أنه يمكنني الشعور به؛ أشعر بملمس وتضاريس كل جزء فيه؛ الأنف، العينين، الحواجب، الشفتين، الوجنتين، الجبين؛ كل جزء موجود في مكانه لكن لا يظهر في المرآة غير أصابعي وهي تتحرك فوق سحابة بيضاء؛ أما وجهي فلا أثرَ له... فتحتُ فمي وتحسست أسناني بأصابعي لكني لم أكن أرى في المرآة شيئًا مما في داخل فمي، أخرجتُ لساني لكنه لم يخترق السحابة ولم يظهر في المرآة... تركت هذه المرآة وذهبت لمرآة الحمام وكان نفس الرعب هناك في انتظاري؛ لا وجه لي... كنت في حالة من الفزع وبدأت أبكي فكانت قطرات الدمع تنساب أمامي في المرآة وكأنها قطرات مطر تهطل من تلك السحابة التي تحتل وجهي، بدون أعين تسقط منها أو وَجَنات تسيل عليها، بصقت في حوض الحمام فرأيتُ ما بصقته... إذًا أنا أرى ما يخرج من وجهي لكني لا أرى الوجه نفسه... ثم لاحظتُ أن لون السحابة التي أصبحت وجهي الجديد تتحول تدريجيًا من الأبيض

للرمادي؛ استنتجت على الفور أنه ربما هي حالتي النفسية تؤثر على لون وجهي، وجهي الجديد الذي هو سحابة... ملأتُ يديّ بالماء وغسلت السحابة وأخذت أنظر لقطرات الماء وهي تتساقط من كل أجزائها، أصبح وجهي يُمطر بغزارة.

حاولتُ أن أهدأ كي أستطيع استيعاب هذا الذي يحدث؛ ذهبت للمطبخ وأحضرت زجاجة ماء وجلست في الصالة أشرب الماء بهدوء حتى يمكنني التفكير بعقلانية أكثر... لكني وأنا أرفع زجاجة الماء لأعلى أثناء الشرب وقعت عينايّ على الصورة المعلقة على الحائط، الصورة الوحيدة التي تجمعني بأبي؛ كنت وقتها في الخامسة عشر من عمري... في الصورة كان وجه أبي ظاهرًا بوضوح ووجهي أنا سحابة بلون الشفق!... سقطت زجاجة الماء من يدي واقتربت أكثر من الصورة ولم يكن لوجهي أي أثر بها؛ فقط سحابة جميلة تميل للون الوردي... وكان شعري الأسود يُطوقها بجمال ويلتف حولها فيصنعان معًا لُوحة جديدة من نوعها، لُوحة لسحابة لها شعر طويل.

تركتُ هذه الصورة وذهبتُ مُسرعة لحجرة النوم، أخرجت من أحد الأدراج ظرف الخطاب الذي أضع فيه صوري في المدرسة وتلك التي هي مع صديقاتي في الجامعة وأخذتُ أنظر فيها... كل الصور كانت خالية من وجهي، كلها سُحب بدرجات ألوان مختلفة... ما هذا اليوم؟ وما هذا الذي يحدث لي؟ أما زلتُ أُواصل الحلم أم أني أواجه أعتى أنواع الخيال؟

هل هذه لعنة أم أنها غضب إلاهي؟ أو ربما تعرضتُ لشيء ما مؤخرًا هو الذي سبب لي هذا التحول الشكلي الغريب؛ فمن غير المعقول أن يتسبب كابوس في المنام في تغيير وجهي في الواقع... أنا لم يصعقني مؤخرًا برق أو حتى ماس كهربائي، لم يخطفني طبقٌ فضائي ولم أُغادر كوكب الأرض... أخذت أتذكر ماذا فعلت بالأمس ومَن قابلت؛ لا أحد، لم أخرج من البيت منذ يومين، يوميّ الأجازة الأسبوعية، ولم أرَ في هذين اليومين أحدًا؛ قرأتُ رواية كاملة شاهدتُ أحد أفلام الخيال العلمي، صنعتُ طعامًا يكفي لأسبوعٍ بأكمله؛ هذا كل ما فعلته في اليومين الماضيين؛ لا يمكن أن يكون لأيٍ من هذه الأشياء سببًا في ظهور سحابة مكان وجهي.

عدتُ للمطبخ مرةً أخرى، فتحتُ الثلاجة وأخرجت كل ما بها من أواني وأطعمة، أخذتُ أُحصي على أصابعي ماذا أكلت بالأمس: بطاطس مقلية، بيض مسلوق، زيتون، بامية باللحمة، خبز، برتقال، موز، جزر، خيار، أيس كريم...

هذه الأطعمة أكلت مثلها كثيرًا من قبل وكل الناس تأكلها؛ لا يمكن أن يكون أيًا منها قد سبب لي هذا الذي أراه في وجهي... ماذا إذًا؟

ربما أصابَ عينيّ مرضٌ ما يجعلني أرى الوجوه على هيئة سُحب... وبمجرد أن طَرَقَتْ هذه الفكرة رأسي خرجتُ مُسرعة من الشقة وطَرَقْتُ باب جاري العجوز الأستاذ مينا، الذي يعيش بمفردهِ مثلي... فتح لي الباب فرأيتُ وجهه بدون سُحب؛ إذًا المشكلة ليست في عينيّ، إنما في وجهي... وقفتُ أُحدق في وجههِ وأنا أريد أن أرى انطباعه على رؤيتي بلا وجه، بسحابة تحتل وجهي! لكنه ظل صامتًا راسمًا علامات التعجب على وجهه ثم قال لي:

– ماذا بكِ يا شروق؟ مالي أراكِ منزعجة هكذا؟

كلمة (أراكِ) منه كانت لها وَقْع السحر على أُذنيّ؛ إذًا فهو يراني، ولا بد أنه مازال لي وجهٌ يراه الناس، وليس سحابة بلا معالم؛ سألته على الفور للتأكيد:

– تراني؟ هل تراني؟

ضيّق عينيه الصغيرتين علامة على اندهاشه من السؤال وقال لي:

– ما هي الحكاية؟
– لا توجد حكاية... فقط دخل شيءٌ ما في عيني اليسرى وهي تؤلمني بشدة؛ انظر هكذا... هل تراها حمراء أم ماذا؟

اقتربتُ منه بوجهي وأنا أفتح عيني اليسري عن آخرها بكلتيّ يديّ فازداد اندهاشًا؛ لكنه نظر فيها وقال لي:

– لا شيء، عينكِ سليمة وليس بها شيئًا.

عيني سليمة وليس بها شيئًا؛ إذاً فهو يراها ويرى وجهي... ولماذا أنا لا أرى شيئًا من كل هذا؟ لماذا تحتل وجهي الغيوم؟ تركته بلا تعقيب يقف على الباب وعدتُ لشقتي وأنا أُحدث نفسي؛ وأغلق هو الباب مندهشًا يضربُ كفًا بكف من تصرفاتي في هذا الصباح... ثم انتبهتُ إلى أنني يجب أن أرتدي ملابسي وأُسرع للخروج حتى لا أتأخر على

موعد العمل؛ حتى وإن كنتُ سأذهب لهذا العمل بلا وجه... يكفيني ما أنا فيه من مشاكل مع مديري في العمل... منذ ذلك اليوم الذي واجهتُ فيه إعجابه بي بالرفض وهو لا يتأخر عن اختلاق المشاكل لي.

ظللتُ أنظر لوجهي في المرآة وأنا أرتدي ملابسي وأكاد أن أُجَنْ من هذا الذي يحدث لي؛ ثم تذكرت اسمي القديم (فراق) الذي قمت بتغييره وطلبت من كل المحيطين بي ألا يستخدموه مرة أخرى، بعد أن أعطيت نفسي اسم (شروق) منذ ما يزيد عن عام مضى، أولى بي الآن أن أعود لاسمي القديم (فراق) فهو يتناسب مع فراق وجهي لي؛ أو قد أصلح لكي أكون (غروب).

فكرتُ في أنه قد تكون مرايا البيت هي السبب، أصبحَت لا تُظهر الوجوه إلا على هيئة سُحب... سأعرف بعد قليل إن كانت هي السبب أم لا؛ من مرآة التاكسي الذي سأركبه، ومرآة الحمام في المكتب.

ارتديتُ ملابسي ونزلتُ بسرعة فوجدت أمام المبنى "سامح" ابن الجيران، الطالب في كلية الهندسة، يقف هناك حيث اتسعت ابتسامته بمجرد أن رآني وألقى عليّ تحية الصباح كعادته؛ فحدقتُ في وجهه حتى أتأكد من أنه هو الآخر يراني:

- صباح الخير بشمهندسة شروق.

- صباح الخير يا سامح.

بعد أن تأكدت من أنه يراني ويواصل ابتساماته، سِرْت في طريقي حتى أجد تاكسي، وسار هو بجانبي كعادته حتى استوقفت واحدًا ونظرتُ في مرآة التاكسي الجانبية تحت نظرات الاستغراب من "سامح" وسائق التاكسي؛ وقد كانت السحابة مازالت في مكانها تحتل وجهي... فتح لي "سامح" الباب وركبت ثم لوح لي بيده... غريب أمر "سامح" كثيرًا، فهو يعتبرني قدوة وأحيانًا كثيرة أشعر بأنه يعتبرني حبيبة، يظهر هذا واضحًا في عينيه؛ فمَن يُحب بقوة تفضحه عيناه، وهي تفضحه بكل تأكيد... وأنا من ناحيتي لا أرى فيه غير طفل كبير بالنسبة لي؛ مشاعري لا يمكن أن أُعطيها إلا لرجل، وهو في نظري مجرد مراهق.

المهم أنه كان يرى وجهي ولم تظهر له السحابة، كذلك سائق التاكسي الذي ركبته لم يُبدِ أي ملاحظة.

قبل أن أخرج من البيت أخذت معي في حقيبة يدي مرآة صغيرة، ظللتُ أُخرجها بين الحين والآخر لأنظر فيها فلا أرى غير الغيوم... كيف يُعقل أن يرى الجميع وجهي وأنا لا أرى إلا سحابة! أهذا نوع نادر وجديد من الأمراض؟ مرض نفسي أم عضوي أم ماذا؟... تمنيتُ لو أن كل هذا حُلمًا وعن قريب سأستيقظ منه؛ لكنه بدا وكأنه حقيقة لا فِرارَ منها... تذكرتُ في هذه اللحظات كل مَن أحبوني ثم تركوني ورحلوا، تصدر رحيلهم تفكيري كما تتصدر هذه السحابة وجهي... كيف طاوعتهم قلوبهم أن يتركوني مع ذكرياتهم هكذا؟ أصبحتُ من بعدهم وحيدة تمامًا؛ بلا شيء، والآن بلا حتى وجه... كيف لي أن أواجه العالَم بوجه بلا ملامح بشرية؟ إذا نظرت في المرآة لا أعرف كيف هي ملامحه، هل تبدو عليه علامات الصحة أم المرض، الرضا أم التعاسة.

أخرجتُ المرآة الصغيرة من حقيبتي للمرة الثالثة منذ أن ركبت التاكسي، نظرتُ فيها ربما أراني، ربما عادت لي ملامحي أو حتى جزء منها؛ العينين فقط، سأرضى بالعينين في أعلى السحابة؛ لكن لم أكن هناك، لم يكن شيئًا من وجهي هناك... وفي هذه الأثناء اصطدم التاكسي بسيارة أمامه والتصق وجهي بالكرسي الذي أمامي؛ نزل السائق ليرى حجم الضرر الذي أصاب التاكسي وبدأ شجاره مع صاحب السيارة التي اصطدم بها؛ لم يكن لديّ وقت لأنتظر حتى ينتهي من الشجار الذي لا أعرف مداه؛ لذا فقد تركت له النقود على الكرسي الأمامي وخرجت من التاكسي وسرت مبتعدة للأمام حتى أجد تاكسيًا آخرًا، وظللتُ أنظر لوجهي في كل مرآة سيارة أمر بجوارها؛ فلا أرى غير السحابة... يوم يبدأ بلا وجه لا بد وأن تكون هذه أحداثه.

قبل أن أصل للمبنى الذي به مقر الشركة بعدة أمتار تعطل التاكسي الثاني الذي أركبه في هذا الصباح، يا له من يوم... لذا فقد تركته وسرت هذه المسافة على قدميّ وظللت أثناء سيري في الطريق أنظر للمارة في الشارع وللناس بداخل السيارات كي ألفت انتباههم للنظر ناحيتي؛ لعلي ألاحظ أن أحدًا منهم يرى هذه السحابة التي نبتت في رأسي ويُظهر ذلك في تعبيرات وجهه... فقد يكون الأستاذ مينا لديه من العمر والخبرة ما يُمكنه من رؤية الوجوه التي هي على شكل سُحب، و"سامح" قد يكون لديه من الحب ما يُمكنه من رؤية وجهي أيًا كانت حالته، وسائقو التاكسيات ربما لا يهتمون بالنظر في وجوه زبائنهم... لكن كان كل شيء كالمعتاد، الكل ينظر ناحيتي بعدم اكتراث، ويمضي في طريقه دون أي اندهاش.

وصلتُ لمقر الشركة متأخرة حوالي نصف ساعة عن موعدي، وضعتُ الكارت الخاص بي أمام قاريء البيانات لتسجيل التوقيت، ثم ألقيتُ تحية الصباح على "سعيد" عامل الأمن الذي يجلس أمام الباب الخارجي، وتعمدتُ النظر في اتجاهه حتى يراني جيدًا؛ لكنه رد تحيتي دون أدنى اندهاش.

في طريقي لمكتبي كنتُ أنظر لكل مَن يقابلني من عمال وموظفين؛ وكانوا يتبادلون معي نظراتهم المعتادة وابتسامات عابرة في بعض الأحيان... وقبل أن أذهب للمكتب ذهبت للحمام ونظرت في المرآة المعلقة هناك، وكانت السحابة هي كل ما رأيت مكان وجهي... إذًا كل المرايا لا تعكس إلا صورة السحابة.

في المكتب كانت "رحاب" زميلتي منهمكة في كتابة شيء ما على "اللابتوب" فردت صباحي دون أن تنظر ناحيتي... لكني اليوم بالتحديد أحتاج منها أن تنظر إليّ فربما لا تراني كما لا أرى نفسي، ربما ترى السحابة التي أراها... أريد أحدًا غيري لديه القدرة على ألا يراني، لديه القدرة على رؤية الغيوم مكان الوجوه.

وأنا أفتح "اللابتوب" حاولت الحديث مع "رحاب" في بعض الأشياء وكانت ترد باقتضاب دون النظر إليّ، لما هي مشغولة هكذا منذ الصباح الباكر!... ثم فجأة توجهت بوجهها ناحيتي ففرحت؛ نعم هكذا أُريدكِ أن تنظري إليّ، ونظرت إليها بعينين فتحتهما على اتساعهما وبابتسامة لا بد وأنها كانت بلهاء؛ لكن كان من المؤكد أنها ترى ملامحي المعتادة لأنها قالت دون أدنى ملاحظة منها:

- الأستاذ ربيع سأل عنكِ منذ الصباح؛ لماذا تأخرتِ؟
- كل ما تأخرته هو نصف ساعة... ماذا حدث في نصف ساعة حتى يسأل عني مبكرًا هكذا؟
- لا أعرف... اذهبي إليه في مكتبه فهو يريدكِ.
- أستغفر الله العظيم... كم أمقت هذا الشخص.
- ومَن لا يفعل؟

قبل أن أذهب إلى مكتبه أخرجت المرآة من حقيبة يدي ونظرت فيها؛ ما زالت السحابة تحتل وجهي... حسنًا، ربما كان من الأفضل ألا يرى وجهي هذا الربيع... ما أسوأ أن يكون لمهندسة مثلي مدير ليس مهندسًا... اختلاف نوعي وكَمي في طريقة التفكير وتناول المواضيع... وحاجتي للعمل تفرض عليّ أن أحتمل وأصبر؛ لكن إلى متى؟ ليت

صبري يطول قليلًا حتى أحل مشكلة وجهي هذه... أنا لا أعرف ماذا ينتظرني بوجه بلا ملامح، كيف سينظر لي العالَم عندما يمكنهم رؤيتي هكذا بوجه سحابة؟ قد يضعوني في متحف ليدفع الناس نقودًا كي يروا "المرأة السحابة"، قد يقتطعون أجزاء من وجهي كي يدرسونها ويُجرون عليّ التجارب، سأدخل موسوعة العجائب ويكتبون كُتبًا عني ويُنتجون أفلامًا ومسلسلات.

أخرجتني "رحاب" من شرودي وهي تقول:

- هاي شروق، ما كل هذا الشرود الصباحي؟ اذهبي للأستاذ ربيع قبل أن نجده هنا فوق رؤوسنا، وأنا لستُ في مزاجٍ يسمح لي برؤية صباحية له.

هززتُ رأسي بقوة كي أُسقط عنها تلك الأفكار الغريبة، وقمتُ من مكاني متوجهة لمكتبه، طرقتُ باب المكتب ودخلتُ لا أدري ماذا يريد... قابَلني بابتسامته المستفزة التي أمقتها، وقال لي:

- تفضلي يا بشمهندسة شروق.
- حضرتك كنت طلبتني؛ خير يا أستاذ ربيع.

قال ببروده القاتل وكلماته المتأنية:

- خير إن شاء الله... ما هي أخبار العميل الجديد الذي تتابعين طلباته؟
- أنا حاليًا في اتصال مع العميل لجَمْع بيانات أكثر عما هو مطلوب في الجزء الخاص من ناحيتي، حتى يمكن معرفة كل ما يجب شراءه وتجهيزه وخطة التدريب للموظفين الذين سيعملون على البرنامج... والبشمهندس أمير يقوم بالعمل على باقي الأجزاء؛ هو مدير هذا المشروع وحضرتك يمكنك أن تسأله عن المزيد من التفاصيل.

- أنا بسألكِ أنتِ.

كان ينظر لي بنظرة ثعلب، وكنتُ أستشيط غضبًا من داخلي؛ لا ينقصني الآن هذا الاستفزاز، يكفيني ما أنا فيه من اختفاء وجهي... لا بُد وأن لون السحابة قد تحول الآن للأحمر القاني من شدة الغيظ؛ ليت المرآة معي حتى أراه... رددتُ عليه وأنا أُداري غضبي خلف ابتسامة صفراء لا أعرف كيف تبدو:

- سأتحدث مع بشمهندس أمير عن باقي التفاصيل وأُرسل لحضرتك على الإيميل آخر المستجدات في الموضوع ككل... عن إذنك.

- تفضلي.

أنا مهندسة عمارة؛ مالي أنا وأنظمة التشغيل وبرامج الكمبيوتر... لكنها الوظيفة الوحيدة التي استطعتُ الحصول عليها بعد عام من السعادة، من عملي في المجال الذي درسته، المجال الذي أُحبه؛ يا ليتها دامت تلك الأيام الجميلة.

عدتُ إلى المكتب وطلبتُ كوبًا من الشاي وبضع قطع من البسكويت، ثم وقفت أمام النافذة وفتحتها عن آخرها، وأخذت أقوم ببعض تمارين التنفس؛ تنفس عميق لعدة مرات شعرت بعدها بهدوء وراحة أكثر؛ وذلك حتى يمكنني مواصلة يومي في العمل... وأنا أواصل التنفس العميق أمام النافذة سمعت "رحاب" تسألني دون أن تنظر ناحيتي:

- ماذا قال لكِ الأستاذ خريف، أقصد ربيع؟

ابتسمتُ من وصفها له، وأتفق تمامًا مع هذا الوصف؛ فهو خريف أكثر منه ربيع، ورردتُ عليها:

- لم يقل شيئًا هامًا... المهم هو ما لم يقله.

انشغلتُ باقي اليوم في زحمة العمل، لكني لم أنسَ مأساتي الجديدة مع ما حدث لوجهي... بحثتُ في الانترنت عن أشخاص يَرَوْن وجوههم بأشكال مختلفة؛ لكني لم أجد شيئًا ينطبق على حالتي أو حتى يقترب منها من قريب أو من بعيد.

****

2

في إعدادي هندسة نجحت بتقدير جيد جدًا، وكنتُ سعيدة جدًا، وأردتُ أن أهدي هذا النجاح لصاحب الفضل فيه، دكتور "تاج"، الذي لولاه ما كنت استطعتُ الالتحاق بكلية الهندسة... لم أكن قد كتبت له خطابًا جديدًا منذ بداية امتحانات نهاية العام، لذا فكرت أن أكتب له خطابًا طويلًا؛ تعويضًا له عن انقطاع خطاباتي عنه في الفترة الأخيرة؛ ثم رأيت أنه من الأفضل أن أذهب إليه بنفسي وأُخبره بنجاحي هذا.

وصلتُ سعيدة إلى المستشفى الذي يعمل فيها، سألت عن مكتبه، لكن كان ذلك الخبر الفاجعة في انتظاري "دكتور تاج مات"؛ هكذا ألقت إحدى الممرضات الجملة في وجهي وكأنها تقول شيئًا بسيطًا اعتادت أن تتفوه به كل يوم... لم يعي عقلي معنى هذه الكلمات الثلاث "دكتور تاج مات"، ولا بأية طريقة يجب عليّ أن أفهمها... حسبتها كذبة في البداية أو مزحة سخيفة من ممرضة لا أعرفها؛ لكنها كانت حقيقة صادمة، مميتة، أكدتها زميلتها التي تقف بجوارها عندما أعدت السؤال مرة أخرى بعصبية أكثر... وبعد أن فهمت معنى الكلمات الثلاث صرخت في وجهيهما، وخبطت بيديّ فوق الأوراق الموجودة أمامهما، وصنعتُ شَغبًا جمع حولي بعض العمال والمسعفين والأطباء، وكان من بينهم دكتور "رضا" الذي لم أكن أعرفه ولا هو يعرفني، لكنه عندما عرف سبب هذا الصَخَب والبكاء والدموع؛ سألني عن اسمي وعندما سمع اسمي "فراق" قال لهم إنه يعرفني، وأخذني إلى مكتبه وأنا في حالة إنهيار، بينما استمر هو في محاولة تهدئتي:

– فراق... أنا دكتور رضا، الصديق المقرب لدكتور تاج الله يرحمه... لقد حدثني عنكِ كثيرًا، وأنا كنت سآتي إليكِ قريبًا... هناك أشياء تركها لكِ تاج يجب أن تأخذيها... هناك أشياء أريد أن أتحدث معكِ فيها، لكن اهدئي أولًا.

حاولت أن أهدأ لكني لم أستطع؛ طلب من إحدى العمال أن يُحضر لي كوبًا من الليمون، وأجبرني على شربه، ثم أكمل كلامه:

– تاج ترك لكِ خطابًا معي، كذلك ترك لكِ كل ما كان يملك من أشياء غالية عليه، أيضًا وضع لكِ في حسابكِ في البنك النقود التي ستحتاجينها حتى تنتهي من التعليم في كلية الهندسة... والأهم من كل هذا أنه

طلب مني أن أجعلكِ تتركي الحجرة التي تُقيمين فيها في المقابر، وأن تنتقلي لتُقيمي في الشقة التي كان يقطنها؛ هو رتب لكِ كل شيء قبل أن...

وقبل أن يقول الكلمة التي أصبحت أعيها جيدًا، ازداد بكائي، ودخلت في حالة انهيار لا يمكن لكل ليمون العالَم أن يقوم بتهدئتها؛ فطلب من إحدى الممرضات أن تُحضر حقنة مهدئة، غرسها في ذراعي فبدأت أفقد قليلًا الاحساس بالألم النفسي، وبالأشياء من حولي.

بعد أن هدأت أخذني دكتور رضا في عربته وذهب بي إلى حيث أعيش في المقابر؛ كنت منقادة لما يقوله ويفعله، فاقدة للارادة والتفكير، وكأن روحي قد خرجت من جسدي وتنظر لكل هذا الذي يحدث من بعيد.

انتظرني في العربة وطلب مني أن أُحضر كل ما هو ضروري من الحجرة التي أعيش فيها، وأُغلقها، بحيث أعود وآخذ باقي أشيائي فيما بعد... طلبت منه أن يُمهلني عدة أيام حتى أُدرك أبعاد كل هذه المفاجئات التي ظهرت أمامي مرة واحدة، لكنه رفض وكان حازمًا في قراره، ولم يكن أمامي غير أن أقوم بتنفيذ ما يريد... فأخذت من الحجرة بعض الملابس وبعض الكتب وذهبت معه لا أعرف إلى أين.

في الطريق وقف بعربته أمام "سوبرماركت"، واشترى منه بعض الأطعمة والمعلبات، قال لي أني سأحتاجها حتى أتأقلم مع المكان الجديد... ثم توقف بالعربة أمام بناية مكونة من ستة طوابق، وصعدنا حتى الطابق الأخير منها، ثم فتح باب شقة على يسار السلم ودخلنا، أضاء المصابيح، ثم فتح النافذة؛ فرأيت من خلالها مأذنة وسماء صافية... بعد ذلك أعطاني المفتاح وهو يقول لي:

- فراق، سأقوم بالاتصال بمالك البيت لتحديد ميعاد لتوقعي معه عقد إيجار الشقة باسمكِ.

- دكتور رضا، أولًا أنا أُريد أن أزور قبر دكتور تاج... أين تم دفنه؟

- لقد أوصاني أنا وحسن بأن نقوم بدفنه في المقبرة الجماعية التي بها أهله.

- أريد أن أعرف مكانها، أرجوك خذني لهناك، هيا بنا.

- ليس الآن يا فراق، ليس لديّ وقت اليوم لهذه الزيارة، والمكان بعيد... في نهاية الأسبوع سأمر عليكِ ونذهب لزيارته... انتظري قليلًا، سأُخبر أستاذ مينا جارك بأنكِ حضرتِ... تاج أوصاه عليكِ أيضًا.

رأيته يتجه للشقة المقابلة ويطرق الباب؛ حيث خرج له رجل كبير في السن، أشيب الشعر، طويل، ورفيع... ترك باب شقته مفتوحًا واتجه مع دكتور رضا حيث أقف في الصالة، وقام بالترحيب بي باتسامة كبيرة مادًا يده في حرارة:

- مينا رمسيس، مدرس تاريخ على المعاش، وأحب الرسم.

صافحته بترحاب مماثل، وحاولت أن أبادله الابتسام؛ لكني لم أستطع.

- فراق جابر، طالبة في كلية الهندسة وأحب القراءة.

- نورتِي المكان يا فراق، تاج حدثني كثيرًا عنكِ وطلب مني الاهتمام بكِ... اعتبريني مثل والدكِ واسأليني عن أي شيء قد تحتاجين إليه.

دمعت عيناي وأصبحت على وشك البكاء؛ فأخرج دكتور رضا ظرف خطاب من حقيبة جلدية سوداء يُعلقها على كتفه وقال لي:

- هذا الخطاب تركه لكِ تاج، وكل شيء هنا في الشقة قد تركه لكِ؛ ولكِ حرية التصرف فيه... سنترككِ الآن، وإذا احتجتِ لشيء اسألي الأستاذ مينا، وسأحضر يوم الجمعة لنذهب لزيارة المقبرة التي بها تاج كما اتفقنا.

صافحاني ثم تركاني في بيت تاج وذهبا... تركاني مع كل هذه الذكريات الحية وخطاب في يدي، لا أدري ماذا به.

أغلقت الباب وأخذت أتجول في المكان بعينيّ... حجرتان وصالة ومطبخ وحمام، نوافذ تُطل على السماء من كلّ ناحية، ومآذن كثيرة تظهر واضحة من خلال النوافذ.

في الصالة وقعت عيناي على لوحة وحيدة مُعَلَقة هناك، مرسوم بها شجرة كبيرة كل أفرعها بلا أوراق، وفي منتصف الشجرة ورقة وحيدة خضراء... لم أستطع أن أعرف معنى اللوحة لكنها كانت تجذب النظر والتفكير.

وأنا أغوص بعينيّ في اللوحة، سمعتُ طَرْقًا على الباب؛ فتحته لأجد الأستاذ مينا يقف وفي يده صينية عليها بعض الطعام؛ شكرته، وأوضحت له أنه معي طعام؛ لكنه أَصَر على أن آخذها، وضعها بين يديّ وذهب.

وضعتُ صينية الطعام على المنضدة، وجلستُ على الأريكة الموجودة أسفل اللوحة، فتحت خطاب تاج وبدأت أقرأ:

عزيزتي صاحبة القلب البريء والكلمات العَطِرَة: فراق

ها أنذا أكتب هذا الخطاب الذي هو خطابي الأول والأخير لكِ... أولًا أحب أن أشكركِ على خطاباتكِ العذبة التي كانت تنتشلني مما أنا فيه، وتُنقذني من آلامي في أحيان كثيرة، مع كل خطاب منكِ كنتُ أجد سعادة خاصة، وطعم حلو تشعر به روحي... سبعة عشر خطابًا، أعتبرها سبعة عشر وردة عطرة تلقيتها منكِ.

أنتِ تعرفين عني القليل، وسأذكر لكِ في خطابي هذا حكايتي باختصار، وسأقول لكِ ما لم أقله لأحد مُطلقًا، أختصكِ به وحدكِ؛ لأن مكانتكِ عندي ليست كأي أحد.

في صغري كنتُ طفلًا غير عاديً،ا بقدرات غير عادية، يمكنني عندما أُغمض عينايّ أن أسمع على مسافات بعيدة، ويمكنني عندما أُغلق أُذنايّ أن أرى على مسافات أبعد... ثم طورت هذه الحواس لديّ، وأصبح لديّ القدرة على تحريك الأشياء بعينيّ بمجرد تركيز النظر عليها... لم أقل هذا السر لأحد ولا حتى لأمي التي ماتت بالسرطان، وأصبحت من بعدها وحيدًا في البيت معظم الوقت؛ فكانت قدراتي الغريبة هذه هي كل حياتي، وطريقتي المفضلة في التسلية وقضاء الوقت؛ ففي المساء أُغمض عينايّ وأتجول بأذنيّ في كل بيوت المبنى الذي كنت أُقيم فيه؛ فأعرف حكايات الجيران، وأسرارهم، وأدخل بيوتهم، وأجلس معهم على موائدهم؛ كان لي في كل بيت مكان دون أن يدري أحد، وكنتُ بعينايّ أرى ما بداخل البيوت البعيدة.

وأنا طفل، ومنذ أن عرفت أول موت في حياتي، موت جدتي أم أبي؛ أصبحت أجمع في صندوقين أشياء تذكرني بمَن أعرفهم ويموتون، وأعطيت لهذين الصندوقين أسماء (صندوق الأحبة وصندوق الأشرار)... كنت أكتب على شيء ما

يخص كل راحل منهم كلمات قليلة عنه تذكرني به وبحاله، طيب أم شرير... لا أعرف الآن ماذا أفعل بهذين الصندوقين بعد موتي؛ هما بالشقة التي تركتها لكِ لتُقيمي فيها من بعدي؛ لكِ حرية التصرف فيهما.

بعد موت أمي بحوالي عام تزوج أبي، وأكملتُ أنا دراستي في مدارس داخليه، وفي الأجازات كنت أبقى في منزل عمتي... وبعد أن دخلت كلية الطب فضلت أن أعيش بمفردي بعيدًا عن عمتي... وكنت كلما تقدمت في العمر تقدمت في الحواس؛ وأصبحت أشم رائحة الكلمات؛ لا تستغربي، نعم كنت أشمها، سواءً أكانت كلمات منطوقة أو مكتوبة، فالكلمات الصادقة تكون رائحتها عطرة والكاذبة تكون رائحتها كريهة... ثم أصبحت لي القدرة على أن أتذوق الطعام بطريقة مختلفة، الطعام الحرام أو من مال حرام أشعر به مر الطعم في فمي، والطعام ذو المصدر الحلال يكون لذيذ الطعم... وآخر الحواس التي نضجت لديّ كانت حاسة اللمس؛ فقد أصبح بمقدوري عندما ألمس شخصًا ما أن أعرف ما يفكر به في تلك اللحظة.

أعرف أن هذا الذي أقوله لكِ مرعب، وفوق قدرات البشر العاديين؛ لكن هذا ما حدث لي، والذي عرفت سببه متأخرًا جدًا؛ عندما كشف لي الماضي حقيقة مَن أكون... كنت ابن لعنة قديمة؛ قرية احترق كل ما فيها وفقد كل الناجين من النار ذاكرتهم، ثم فقدوا حياتهم بعد عام من هذه المأساة، وبقيتُ أنا الطفل الوحيد الذي وُلد بعد الحريق، وسرقتني من الملجأ أمي التي أعطتني اسمها واسم زوجها، وشكلت لي حياتي ومستقبلي، وظلت بجواري حتى ماتت بالسرطان، ثم تركت لي خطابًا قبل موتها تُخبرني فيه بحقيقتي ومَن أكون... خطاب لم يصلني إلا بعد أن أنهيت تعليمي الجامعي وأصبحتُ طبيبًا.

قلب هذا الخطاب حياتي رأسًا على عقب، وأصبح شغلي الشاغل هو البحث عن هذا الماضي ومعرفة مَن أكون، ابن مَن أنا، وأية لعنة هذه التي أنا موصوم بها... إلى أن عرفتُ الحقيقة، وحصلتُ على الميراث الذي تركه لي مصباح7، آخر مَن مات بقريتي التي أصابتها اللعنة، والذي خصني بمذكراته وبالقصة كاملة لما حدث... ستجدين هذه المذكرات التي تركها لي في الشقة؛ لكِ أيضًا حرية التصرف فيها، كل ما كنت أملك هو لكِ يا فراق، ولكِ حرية التصرف فيه.

بعد أن عرفت مَن أنا، وأثبت ذلك؛ أخبرت الجميع بهذا إلا أنتِ؛ لم أكن أريد لشيء أن يشغلكِ عن دراستكِ، لكني أُخبركِ الآن بالقصة كلها وأخصكِ فيها بأسرار لم أقلها لأحد... بعد أن عرف مَن حولي حكايتي، منهم مَن

تقبلها وتقبلني، ومنهم مَن نظر لي باستغراب وأخذ يتعامل معي في حذر... ثم بدأ كل شيء ينهار بعد ذلك، فقدتُ حواسي الخارقة، ثم فقدتُ صحتي؛ وأنا الآن بيني وبين الموت خطوات قليلة، ربما أيام معدودة... كتبت الحكاية كلها في كتاب (كتابي الأول والأخير)، وأوصيت صديقايّ رضا وحسن أن يقوما بنشره بعد موتي؛ احصلي منهما على نسخة واقرأيه كي تعرفيني أكثر، تعرفي مَن أنا، ومَن هم أهلي.

عمتي إقبال هي الأقرب لي من كل أهلي، ممَن كنت أحسبهم أهلي، قضيتُ أيامًا عديدة في بيتها قبل أن أستقل بحياتي، حتى بعد أن عرفت حقيقتي، وابن مَن أنا، ظلت تحبني كما كانت وتعتبرني كابنها، لم تُبدل حبها لي يومًا... مؤخرًا حكيتُ لها عنكِ، أخبرتها بحبي لكِ وبأنني سأترك لكِ ملابسي وكتبي وشقتي لتعيشي فيها؛ عندما سمعت هذا لم تقل شيئًا، فقط احتضنتني وبكت... أترك لكِ هنا في الشقة عنوانها ورقم تليفونها؛ تحدثي معها يا فراق واسألي عنها، دعيها تساعدك إذا احتجتِ لمساعدة، هي شخصية قوية، امرأة بمئة رجل.

لقد أوصيتُ رضا أن يسأل عنكِ، ويظل على صلة دائمة بكِ؛ رضا أقرب أصدقائي لقلبي، وأفضل إنسان من الممكن أن تعتمدي عليه؛ اسمعي نصائحه والجأي إليه إذا احتجتِ لشيء... أيضًا أوصيتُ عليكِ جاري الأستاذ مينا، ستعرفينه عندما تأتين هنا.

قبل أن ألتقي بكِ كنت على علاقة بطبيبة تكبرني بعام، اسمها "هدى"، طبيبة أطفال... كانت قصة حب لم تكتمل، وتركتني كي تتزوج ممَن هو أكثر مني شهرةً ومالًا... ورغم الألم الذي سببته لي؛ فقد نسيتها، وأحببتكِ أنتِ يا فراق... نعم أحببتكِ، ها أنا ذا أقولها، أنتِ أجمل وآخر حب دخل قلبي.

في خطابكِ العاشر الذي بدأتيه بـ (عزيزي تاج الحب) وبسؤالكِ: "هل وقعت في الحب يومًا؟"؛ كنت في تلك اللحظة واقعًا فيه، في حبكِ أنتِ.

أعتذر عن أي ألم سأسببه لكِ برحيلي هذا؛ لكنه لم يكن باختياري؛ لم يكن شيئًا مما حدث لي باختياري.

محبتي التي لم أقلها لكِ في حياتي.

تاج

بكيتُ كثيرًا وأنا أجلس مكاني، وأعدتُ قراءة الخطاب مرة أخرى؛ ثم احتضنته ونمت في مكاني على الأريكة... وعندما استيقظتُ؛ كان الليل قد ملأ كل الأماكن، وكنتُ أشعر بالجوع، ويأتيني من النافذة صوت آذان عذب... وقفت أمام النافذة، وفتحتها عن آخرها، وأخذت نفسًا عميقًا، وظللتُ أنظر للمباني من حولي، واستشعرت هدوء الليل يتخللني، والهواء النقي يُرحب بي في هذا المكان الجديد عليّ... وكان يتدلى من قبة السماء قمرٌ أبيض على شكل هلال؛ وكأنه ابتسامة ترحيب كبيرة... أخيرًا سيمكنني دون خوف أو خجل أن أُخبر زملائي في الكلية أين أسكن.

أكلت قليلًا من الطعام الذي أحضره لي أستاذ مينا، ثم بدأت أتفحص باقي الشقة التي لم أكن رأيت منها غير الصالة... كل حياة تاج، وتفاصيله، وأشياؤه؛ كانت حاضرة في المكان، لم يكن ينقص شيء غير وجوده.

جلست أمام كل ما تركه لي؛ وأخذت أسأل نفسي: "ماذا عسايّ قد أفعل بإرث كهذا؟".

في نهاية الأسبوع حضر دكتور رضا كما اتفقنا لكي نذهب لزيارة المقبرة لتي بها تاج... أخذني معه في عربته لمكان لم أكن أعرف أنه موجود، بلدة محترقة لا يقربها أحد، بلدة أصابتها يومًا لعنة، وبجوارها مقبرة جماعية تضم أهل هذه البلدة الذين عاشوا فصول تلك اللعنة... وقفنا أمام المقبرة، ولم أكن أعرف أين بالضبط يوجد مكان جثمان تاج، أخذ دكتور رضا يدعو لهم ولتاج لعدة دقائق؛ ثم ابتعد عدة خطوات عني، ووجدت نفس لا أقدر على قول شيء، فقط كنت أبكي.

بعد عدة أسابيع، ذهبتُ لحجرتي في المقابر؛ لكي آخذ باقي أشيائي التي تركتها هناك، وأُودع ذلك المكان الذي لم أكن أنوي العودة إليه إلا بعد أن أفارق الحياة؛ مثل أي إنسان طبيعي لا يذهب ليقيم في المقابر إلا وهو جثة تحتاج لقبر... يكفيني ما عشته من عُمر وسط الأموات، فترة من حياتي قد مرت ويجب عليّ أن أطويها خلفي، وأتعرف على الحياة الواسعة بكل ما فيها من جمال؛ بعيدًا عن رائحة الموت وذكراه المستمرة.

ذهبتُ أولًا لزيارة قبر أبي وأمي، دعوت لهما كثيرًا، وكذلك زرت قبر أم سعد ودعوت لها؛ ثم عدت لحجرتي القديمة، حيثُ جمعت ما أريده من أشياء بها: ملابس، حذاء، كتب، أوراق وشهادات، صور... ثم وقفت أمام صندوق

الطفولة كما كنت أسميه، حيثُ أحتفظ بداخله بالألعاب القليلة التي كنت ألعب بها وأنا طفلة، حصان خشبي ينقصه أحد الأرجل، عروسة من القطن بذراع واحدة، طائرة ورقية ممزقة الأجنحة، وكيس من "البلي" الملون، تركت كل شيء كما هو في الصندوق، وامتدت يدي لكيس "البلي"، فتحته وملأت كفي بالكرات الزجاجية الملونة التي كنت أسبح بداخل ألوانها وأنا صغيرة في لحظات تأمل كثيرة، أخذت هذا الكيس معي لأنه يذكرني بلحظات صفاء وسعادة كانت تمنحني إياها هذه الكرات الزجاجية الصغيرة.

أخذت أيضًا صندوق أوراق أبي الذي كان يحتفظ بداخله بشهادات وأوراق وعناوين تخص أخواتي البنات قبل أن تنقطع أخبارهن عنا... سألته يومًا: "لماذا لا تبحث عنهن وتعرف أخبارهن؟" فرد عليّ قائلاً: "وماذا قد يفيد البحث عنهن وأنا لا أستطيع تقديم شيء لأية واحدة فيهن"... على مدار أعوامي معه قبل أن يموت وهو يزرع بداخلي هذه الفكرة، أن مَن تخرج من هنا يجب ألا تعود مرة أخرى، وها أنا ذا أفعل.

تركت باقي الأشياء، وكل ما في الحجرة من أواني، وأثاث، وملابس؛ لمن سيسطو عليها ويعيش فيها من بعدي، لا أريد أن أعرف مَن سيفعل هذا ولا أفكر فيه... تركتُ الباب مواربًا خلفي، وذهبتُ دون التفات.

****

3

مر أسبوع الآن على اختفاء وجهي وظهور السحابة مكانه؛ أحاول أن أعتاد على وجودها لكني لا أستطيع؛ لذا أصبحتُ أكثر عصبية، وسيئة المزاج باستمرار... حاولَت رحاب أن تعرف ما بي؛ لكني التزمتُ الصمت؛ فتركتني وشأني... أصبحتُ لا أبالي بشيء حتى وإن تركت العمل، حتى وإن عرف الناس سر وجهي السحابة.

ليس لي تواصل مع أقارب أو أصدقاء مقربين، حياتي الاجتماعية محدودة للغاية، أو تكاد تكون منعدمة... أنا أُشبه حلزون ينغلق على نفسه هاربًا من العالَم وما فيه... أُفضل الجلوس في البيت على الخروج إلا للعمل أو للضرورة، تسليتي تتمثل في أن أذهب في جولة داخل كتاب، أو أن أستمتع بمشاهدة فيلم جميل... أتعامل بحذَر مع الآخرين،

وأضع دائمًا حاجزًا بيني وبين كل مَن يحاول الاقتراب مني، جدار شاهق وسميك شيدته بنفسي كي يفصلني عن الآخرين.

وأنا أبحث عن أي منفذ لضائقتي هذه تذكرت أستاذ "محمد إبراهيم"، صاحب المكتبة التي كنت أعمل بها، هذا الرجل عنده من الحكمة ما لم أجده في أحد غيره... عملت معه في المكتبة لمدة خمسة أعوام متواصلة، ثم توقفت عن العمل هناك وأنا في عامي الأخير في الكلية، وقبل أن أترك العمل أوكل لي مهمة أن أجد مَن يساعده في المكتبة بدلًا مني.

وقعتُ يومها في حيرة، فيمَن قد أختار ليكون خليفة لي في هذا المكان الذي أحبه، بحثتُ في رأسي ومن حولي؛ إلى أن وجدته، "سامح" ابن الجيران... عندما انتقلت للعيش في هذا المبنى، كان سامح في الصف الأول الثانوي، يعيش في الطابق الثالث مع والدته وأختيه التوأم اللتان تصغرانه، والدته سيدة مكافحة وبشوشة الوجه، تبتسم لي كلما رأتني، تُوفيّ زوجها منذ حوالي عامين، وهي تعمل وتُربي أبنائها، ثم بدأ سامح يساعدها كلما وجد فرصة للعمل، كان قد نجح بتفوق في الثانوية العامة والتحق بكلية الهندسة، الكلية نفسها التي كنت أذهب إليها، كنت في عامي الأخير وهو في عامه الأول... ألتقي به كثيرًا في الصباح، وأحيانًا أجده ينتظرني أمام المبنى حتى نذهب للكلية معًا... يصغرني بحوالي خمسة أعوام، وأعتبره كأخ أصغر، لكن نظراته لي لم تكن تعتبرني كذلك... حتى الآن ألتقيه كثيرًا صدفة أمام المبنى، وربما هي ليست صدفة، أشعر به يحبني، وفي كل مرة يكون أمامي يطل هذا الحب واضحًا من عينيه البنيتين الكبيرتين، ثم أجده يهرب بعينيه وينظر للأرض... رأيتُ أنه الأنسب لعمل كهذا؛ تحدثت معه ووافق على الفور، ثم أحضرته للأستاذ محمد؛ فقام باختباره، والموافقة عليه كبديل لي في المكتبة.

ذهبت للمكتبة، واستقبلني أستاذ محمد بترحابه المعتاد، وكذلك سامح بعينيه المحبتين... جلست أتحدث مع أستاذ محمد عن أحواله وأحوال المكتبة والكتب؛ ولاحظ بخبرته في التعامل مع البشر وجود شيء ما غريب يتملكني؛ حاولت أن أخبره بمشكلتي لكن لم تخرج مني أية كلمة عنها، ولُذتُ بالصمت، فلم يسألني؛ ثم قال لي أنه يجب عليه أن يترك المكتبة الآن لأن لديه واجب عزاء، وقبل أن يذهب أعطاني كتابًا كي أقرأه؛ في كل مرة أحضر للمكتبة يُعطيني كتابًا جديدًا... وقال لي بوجهه البشوش:

- اقرأي هذا الكتاب يا شروق، فسوف يُخفف من حِدة الموقف الذي تمرين به أيًا كانت صعوبته... وعندما تريدين الحديث تعالي؛ سأكون في انتظارِكِ.

وضع الكتاب بين يديّ وخرج من المكتبة فنظرت للغلاف (طعام، صلاة، حب: امرأة تبحث عن كل شيء)، أنا لا أبحث عن كل شيء، أنا أبحث فقط عن وجهي... نظرت لاسم المؤلف (إليزابيث جيلبرت)، لم أكن قد قرأت لها شيئًا من قبل، لكني أمسكت بالكتاب جيدًا، بكلتيّ يديّ؛ وكأنه طوق نجاة.

وقفت هناك ضعيفة وخائفة وأنا أُمسك بالكتاب، ولا أعرف ما هي الخطوة القادمة التي يجب عليّ أن أخطوها لحل مشكلة وجهي؛ وعندها وجدت سامح يقترب مني حتى وقف أمامي مباشرةً، لكنه لم يقل شيئًا، ترك عينيه المحبتين تقولان كل شيء، ثم اقترب مني أكثر... ماذا؟ هل سيُقبلني؟ لو فعلها الآن لتركته، ربما كانت قُبلة حبيب قد تُعيد لي وجهي المفقود، مثل تلك التي تلقتها الأميرة النائمة فاستيقظت من نومها الطويل... لكنه لم يفعل، ونظر إلى الأرض كعادته؛ فانسحبت من مكاني، وخرجت من المكتبة.

في طريق عودتي للبيت اشتريت كاميرا، وبدأت أقوم بتصوير وجهي كل يوم، أحتفظ بصورة يومية للسحابة ودرجة لونها... كنتُ أيضًا أقوم بتصوير السُحب التي تظهر في السماء... أحمل الكاميرا معي في كل مكان أذهب إليه، وكلما لمحت سحابة في السماء أو مجموعة سُحب أقوم بتصويرها؛ أصبح لديّ الآن مئات من الصور التي بها سُحب بمختلف الأحجام والأشكال والألوان، أفردها أمامي على شاشة الكمبيوتر، وأقف أمام المرآة، ثم أبدأ في مقارنة الصور بوجهي؛ هذه سحابة أجمل مني، وهذه بها تشوه واضح في جانبها، وهذه منتفخة أكثر من الازم، وهذه أصغر من أن تصلح لكي تكون وجهًا، أما هذه فإنها تبدو تمامًا وكأنها أنا.

المهندس أمير، زميلي في العمل، ويكبرني بخمسة عشر عامًا؛ أكن له احترامًا كبيرًا وتقديرًا؛ هو أكثر مني خبرة، وتعلمت منه الكثير في العمل الذي كان في نوعه جديدًا عليّ، ومازال يساعدني كلما احتجت لذلك... لديه صفة جميلة قلما نجدها في الآخرين، وهو أنه يترفع عن صغائر الأمور، ولا يُعطي لشيء حجمًا أكبر من حجمه... بعد عدة أيام من اختفاء وجهي؛ لاحظ أني لستُ على ما يرام؛ تحدث معي وأراد أن يعرف ما بي؛ لكن ماذا عساي قد أقول له، أنا لا أراني، هناك سحابة تظهر مكان وجهي! استيقظت ذات صباح فوجدت وجهي قد اختفى؛ هذا كلام

لن يصدقه أحد... أخبرته بأني متعبه بعض الشيء؛ وقد كان لديه الحل لما وصفته بالتعب؛ فاقترح عليّ أن آخذ أجازة لمدة أسبوع أستريح فيها... ووجدت أن اقتراحه هذا هو أفضل ما قد أفعله في حالتي هذه.

على الفور ذهبت لمكتب أستاذ ربيع، وطلبت موافقته على الأجازة... وافق على طلبي بصعوبة بعد أن أخبرته بأني سأعمل من البيت خلال الأجازة إذا اقتضى الأمر لذلك.

وضعتُ آمالًا كبيرةً على هذه الأجازة؛ فربما عندما أستريح يمكنني استعادة ملامح وجهي، وإذا لم يحدث هذا فيجب عليّ أن أجد حلًا لمحاولة استعادتها.

في اليوم الأول من الأجازة قرأت رواية (المحيط في نهاية الدرب) لنِيل جايمان، غُصتُ تمامًا طوال اليوم في هذه الرواية العجيبة، الهادئة الصاخبة في الوقت ذاته... ثم اختتمت يومي بمشاهدة فيلم القلب الشجاع (Braveheart)، فيلم يعطي الاحساس بالأمل والشجاعة، وأنا في أمس الحاجة للاثنين معًا.

في اليوم الثاني من الأجازة كررت سيناريو اليوم الأول، فقرأت رواية (طعام، صلاة، حب) التي أعطاها لي أستاذ محمد إبراهيم، أعجبتني الرواية كثيرًا وتمنيت لو أفعل مثل "ليز" وأرحل بعيدًا حتى أجد نفسي وأجد معها وجهي، لكن ليس في مقدور الجميع الرحيل حتى وإن أرادوا... ثم شاهدت الفيلم المقتبس عن الرواية والذي له نفس الاسم (Eat, Pray, Love) ولم يعجبني الفيلم بقدر ما أعجبتني الرواية... وجلستُ طوال الليل أفكر لماذا أراد مني أستاذ محمد أن أقرأ هذه الرواية وقال لي أنها ستخفف من حدة الموقف الذي أمر به أيًا كانت صعوبته، ووصلت لنتيجة أنه ربما لقوة بطلة الرواية في هزيمة الحالة التي كانت تمر بها وتخطيها، في إعادة ترتيب أجزاء حياتها، في بحثها عن السعادة والسلام الداخلي إلى أن وجدتها... لكن حالتي مختلفة، وقصتي غريبة، لن يصدقها أحد، ولن أجد دواءً لها في كتاب.

انقضى يومان من الأجازة؛ ولم يجد جديد في مسألة اختفاء وجهي... وبالاضافة للقراءة ومشاهدة الأفلام فقد قمت خلال هذين اليومين بعمل بعض تمارين الاسترخاء؛ أجبرت عقلي على التوقف عن التفكير في شيء، فعلت كل ما أمكنني لأهدأ؛ لكن ظلت السحابة أمامي كلما نظرت في المرآة، وأحيانًا كنتُ أُحضر قلم ألوان وأرسم على المرآة فوق السحابة: عينين، حاجبين، أنف، شفتين؛ ثم أقوم بتلوين الشفتين بالأحمر، وأظل أقف في ثبات في مكاني حتى لا أتحرك وتضيع ملامحي المرسومة بعناية على الزجاج.

قررت في اليوم الثالث من الأجازة أن أشارك أحد ما في مشكلتي هذه، فعقلين في التفكير أفضل من عقل واحد... ولم أجد أفضل من جاري العزيز الأستاذ مينا كي أحكي له ويكون أول مَن يعرف بهذا الشيء العجيب الذي يحدث لي... قررت أن أصنع طبقًا من الحلويات آخذه معي، ووقع اختياري على أرز باللبن والمكسرات... ومع العصر ارتديت ملابس الخروج، وأخذت إنائيّ الأرز باللبن والمكسرات، وطرقت باب شقة الأستاذ مينا؛ استغرق عدة دقائق حتى فتح الباب، وعندما ظهر أمامي كان شاحب الوجه، ويبدو عليه التعب والارهاق:

- عمو مينا، ماذا بك؛ تبدو متعبّا؟

- لا شيء جديد، أمراض الشيخوخة المعتادة يا شروق... تفضلي.

دخلت ووضعت الأطباق على المنضدة التي تتوسط الصالة، وبعد أن جلس قدمت له طبقًا وجلست أمامه:

- لماذا تعبتِ نفسكِ يا شروق؟

- أين هو هذا التعب؟ ذق وقل لي رأيك.

ملأ ملعقته، وبعد أن تذوقها هز رأسه استحسانًا للطعم وأثنى عليه... وبعد أن أكلنا كل ما في الأطباق، وتناولنا بالحديث بعض الأخبار العامة من هنا وهناك، وضعت الأطباق جانبًا، ثم وضعت يديّ على وجهي الذي لا أراه، وقلت له وأنا لا أدري كيف يمكنني أن أخبره بمشكلتي:

- أنا أيضًا يا عمو مينا أصابني مرض لا أعرف له اسم أو حتى تصنيف محدد.

- خير، سلامتكِ... ماذا أصابكِ؟

- ربما لن تصدقني، لكن لم أجد أحد غيرك أشاركه محنتي هذه.

نظر إليّ بعينيه الضيقتين في استفسار؛ فأكملت:

- منذ أكثر من أسبوع وأنا لا أرى ملامح وجهي... أنظر في المرآة فأرى سحابة مكان وجهي؛ عندما أستيقظ في الصباح تكون سحابة بيضاء صافيه، وإذا أصابني اكتئاب تتحول للون الرمادي أو الأسود حسب شدة اكتئابي، وإذا غضبت تتحول لدرجة من درجات الأحمر حسب شدة غضبي.

- شيء غريب لا يمكن تصديقه بالفعل؛ لكني أرى وجهكِ جيدًا، وملامحكِ التي أعرفها ها هي أمامي لا ينقص منها شيئًا.

- كل الناس تراه إلا أنا.

- هل انتقد أحد مؤخرًا ملامح وجهك، أو هل ترين أنتِ فجأة أنكِ لستِ جميلة؟ مع أني أراكِ جميلة يا شروق... ماذا حدث لكِ مؤخرًا؟

- لا أعرف، ولا أجد شيئًا غريبًا قد حدث لي مؤخرًا، لم يكن وجهي يومًا مطروحًا في عقلي للنقد أو للمناقشة.

- في هذه الحالة أعتقد أنها ربما قد تكون حالة نفسية.

- ماذا؟ مرض نفسي! لم أسمع من قبل عن مرض نفسي أو حتى عضوي بهذا الشكل.

- لا أدري بالتحديد؛ لكن هذا ما يبدو لي... الطب النفسي بحر عميق ويحتاج لغواص ماهر حتى يمكن اكتشاف ما في أعماق النفس البشرية والتي أحيانًا ما تطفو على السطح وتسبب لصاحبها بعض المشاكل، وفي بعض الأحيان قد تكون هذه المشاكل غريبة، وهذا الذي حدث لكِ ربما يكون إحداها... أنصحكِ بأن تستشيري طبيب نفسي.

لذتُ بالصمت ولم أرد على نصيحته بشيء؛ لأنه لم يخطر ببالي من قبل أن أذهب لطبيب نفسي، لا أعرف حتى كيف يمكنني طرق أبواب الطب النفس، وأي باب منها هذا الذي قد يصلح كمدخل لي... لكن في النهاية عليّ أن أُجرب أي شيء حتى أستطيع أن أستعيد وجهي وملامحي.

شكرت أستاذ مينا على تصديقه لي، وعلى النصيحة، وأخذت الأطباق الفارغة وهممت بالمغادرة... وأنا في طريقي لأغادر شقته وقفت أمام المرآة المعلقة بجوار الباب، وقفز لرأسي سؤال: "هل ما نراه في المرايا هو نفس الشيء الذي يراه الآخرون؟" والتفت للأستاذ مينا وسألته إن كان يرى وجهي في المرآة أم أنه يرى السحابة، نظر للمرآة ثم لوجهي ولم يقل شيئًا؛ ففهمت أنه يراني، لا أحد يرى السحابة غيري، ربما كانت في رأسي أنا فقط.

عدتُ لشقتي وأنا أتخبط في أفكاري، ولا أدري ما هي الخُطوة القادمة التي يجب عليّ أن أخطوها؛ هل سأتقبل هذا الذي أنا فيه وأُعلن استسلامي، أم أني سأحاول تغييره... ثم أخذت أتخيل عالَم بلا وجوه، بلا ملامح، فقط سُحب تسبح مكان الوجوه بلا سماوات تضمها، عندها لن ننظر لأعلى كي نرى السحاب، يكفي أن ننظر من حولنا... لو حدث هذا الرعب، تُرى كيف سيتعرف الناس على بعضهم البعض؟ وكيف ستكون الحياة؟ داهمني الخوف من أن هذا قد يكون مرضًا جديدًا، وأنا المريض رقم صفر، وسيكون المريض رقم 1 هو الأستاذ مينا، أول مَن رآني بعد أن ظهرت السحابة مكان وجهي؛ ثم يتوالى المرضى تِباعًا: سامح، كل مَن رآني في الشارع، سائق التاكسي، عامل الأمن في الشركة، الموظفين الذين التقيتُ بهم هناك، رحاب، الأستاذ ربيع، المهندس أمير؛ وهكذا سنصبح جميعًا بلا وجوه، من ذوات السُحب... تملكني هذا التفكير المرعب كبحر من الأفكار المتلاطمة الأمواج، الشديدة التيار؛ إلى أن نمت وأنا غارقة فيه؛ فرأيتُ أسوأ حُلمًا قد يراه إنسان؛ وأطول حُلمًا قد أراه في حياتي.

****

4

قبل أن يبدأ عامي الدراسي الأول في قسم الهندسة المعمارية بأسبوع، وبعد ظهر يوم جمعة مشمس كنت أستمتع فيه بالنظر من النافذة لأسطح المنازل المجاورة والمآذن المحيطة، عندما سمعتُ طرقًا على الباب، فتحته فوجدتها تقف أمامي، طويلة القامة، ممتلئة الجسم، بيضاء، مستديرة الوجه... وقفت على الباب أتأملها دون أن أعرف مَن تكون، ربما كانت تقصد المنزل الخطأ لكني وجدتها تقول لي:

- هل أنتِ فراق؟

- نعم، مَن حضرتكِ؟

- أنا إقبال، عمّة تاج.

- أهلاً أهلاً بحضرتكِ... تفضلي.

شعرت بسعادة شديدة، وكأني كنت أشتاق إليها قبل حتى أن أراها، كأنها أحد أقاربي الذين جائوا لزيارتي... جالت ببصرها في المكان الذي كان يعيش فيه تاج، ثم جلست على الأريكة وجلست بجوارها؛ لا أدري ماذا أقول لكني كنت سعيدة بحضورها، فكسرت هي الصمت وقالت:

- تاج حدثني عنكِ قبل أن...

واختنق صوتها بباقي العبارة التي كنت أعرفها، ودمعت عينايّ كما دمعت عينيها ثم قالت:

- الله يرحمه، كان في منزلة ابني؛ لقد أوصاني عليكِ.

- تاج في منزلة ملاكي الحارس؛ انتشلني من المقابر، وساعدني على أن أحقق حلمي وأدخل كلية الهندسة.

- ربنا هو الذي يسبب الأسباب؛ وكل إنسان يأخذ ما يستحقه في هذه الدنيا.

طلبت منها أن تحكي لي عن تاج كما تعرفه، تحدثَت كثيرًا عنه وعن صفاته وأخلاقه وذكرياتها معه، أكلنا بعض "السندويتشات"، وشربنا العديد من أكواب الشاي، وظلت تحكي وأنا أستمتع بسماعها؛ إلى أن أتى المساء فقامت لتغادر وهي تقول لي:

- تعالي يا فراق لزيارتي باستمرار، واطلبي مني أي شيء قد تحتاجين إليه... اعتبريني عمتكِ مثلما كان يفعل تاج.

شكرتها بشدة واحتضنتها بقوة، حضن من عمّة أتتني بعد طول غياب... ثم قلت لها:

- عندما أتيتُ للسكن هنا كان يجب أن يكون لي أهل وسط الناس؛ لذا فقد سمحت لنفسي أن أُخبر الجيران في المبنى أنني أحد أقرباء تاج، والدايّ متوفيان، ولي عمّة واحدة تأتي على فترات بعيدة للسؤال عني... أنتِ هذه العمّة التي كانت في خيالي وأنا أقول لهم هذه الكلمات.

- وأنا سآتي لزيارتكِ كلما استطعت... وبيتي مفتوح لكِ كما كان مفتوحًا لتاج.

ها قد ازداد عدد الأهل الذين يسألون عني ويهمهم أمري واحدًا: الأستاذ محمد إبراهيم، الأستاذ مينا، دكتور رضا، والعمّة إقبال.

بعد أن ذهبَت، وقفتُ في الصالة أنظر للوحة الشجرة، وبجوارها الصورة التي علقتها والتي تضم صورتي مع أبي، الذكرى الوحيدة الباقية لتذكرني بالماضي الذي كان... ثم فتحت جهاز الكمبيوتر الذي تركه لي تاج، والذي وجدتُ عليه صورًا له وأبحاث ومواد علمية ومخطوطة الرواية التي كتبها... فتحت ألبوم الصور، وأخذت أتجول بين صوره المختلفة: في المدرسة، في الجامعة، مع أقاربه، مع أصدقائه، وبمفرده... ظللت أتصفح صوره إلى أن نمت؛ فرأيته في الحلم على هيئة طائر أبيض كبير له وجه تاج وجناحيّ ملاك، وكلما حرك جناحيه تنبعث منهما رائحة عطور زكية، غمرتني وتخللتني... استيقظتُ من النوم، وكانت تلك الرائحة مازالت تملأ أنفي.

بعد انتهاء إمتحانات نصف العام الدراسي الأول لي في قسم الهندسة المعمارية، ذهبت لرؤية دكتور رضا لأطمأنه عليّ وأسأل عن أخباره:

- فراق، أين أنتِ منذ عدة أشهر لم أسمع عنكِ شيئًا؟

- الدراسة والإمتحانات... أخيرًا انتهى نصف عام بسلام.

- كنتُ أريد أن أعطيكِ شيئًا ستفرحين به كثيرًا، أخيرًا انتهيت من طباعة الكتاب ونشره.

- أي كتاب؟

- كتاب تاج، الذي كتبه عن قريته ولعنتهم.

أخرج من درج مكتبه كتاب، ومد يده به ناحيتي؛ أخذته ونظرت للعنوان (قصة قرية)، وعلى الغلاف اسم تاج الذي ينتمي به لأهل قريته (تاج لطفي إبراهيم)... إنها القصة التي كتبها تاج عن أهل قريته ولعنتهم، ثم تركها لرضا كي يقوم بنشرها، أخيرًا أصبحت داخل كتاب يمكن للجميع أن يقرأه.

فتحت الكتاب على الصفحة الأولى وقرأت الإهداء:

"إلى مصباح7 الذي أهداني قبل أن يموت عامًا من حياته وحياة أهل قريتي... إليك أهدي كتابي الأول والأخير، كتابي الوحيد... أهدي لك كل الحكاية، ما كتبته وما لم تستطع أنت أن تعرفه".

عدت بكتاب تاج وأنا أحتضنه، وظللت أقرأ كل ما كتبه في هذا الكتاب، وتوثيقه لكل شيء بالصور والمستندات وشهادة شهود عيان عما حدث لهذه القرية وما أصابها من لعنة، وأجزاء بخط يد مصباح7 من مذكراته التي تركها لتاج والتي تعيش معي هنا في الشقة.

ظللت أقرأ حتى وصلت للصفحة الأخيرة من الكتاب، ونمت وأنا أحتضنه؛ فرأيتُ حلمًا جميلًا، رأيتهما معًا في الحلم، في مكان ممتلئ بالورود، تاج ومصباح7، ينظران ناحيتي ويبتسمان.

من بين كل مواقع التواصل الإجتماعي التي غزت حياتنا، أعجبني اثنان فقط، الفيسبوك والجودريدز... أما الأول فأفتحه مرات قليلة كلما أردت أن أعرف آراء الآخرين العامة أو أعرف أخبار أصدقائي الافتراضيين عليه... أما الثاني (الجودريدز) فقط أصبح من أهم وأكثر المواقع التي أفتحها، أضفت عليه كل الكتب التي قرأتها والتي أقرأها والتي أنوي أن أقرأها، عرفت من خلاله كتبًا لم أكن لأسمع عنها يومًا، ولم أكن لأتذوق حلاوتها؛ لولا وجود هذا الموقع... كم أعشق هذا الموقع وفكرته الرائعة في جمع الكتب وكاتبيها وعشاق الكتب في مكان واحد... قمت بعمل صفحة لكتاب تاج على الجودريدز، وكنتُ أول مَن يقوم بتقييمها بخمسة نجوم، وكتابة مراجعة طويلة ومستفيضة عن الكتاب، دعمتها بالصور وببعض مقاطع من الكتاب، وبصورة من صور تاج.

مع قرب امتحانات نهاية العام الدراسي الأول لي في الكلية في قسم الهندسة المعمارية، قالت لي يومًا صديقتي المقربة وجدان، أنني مدعوة في منزلهم على حفل يقيمه والدها المعماري المشهور؛ بمناسبة انتقالهم للإقامة في فيلا جديدة كان يقوم ببنائها وتجهيزها منذ ما يزيد عن عامين، تركوا الشقة التي ذهبت إليها مع وجدان عدة مرات، وأصبحوا الآن في فيلا فاخرة، كتلك التي نراها في الأفلام والمسلسلات.

مرت عليّ وجدان صباح يوم الإحتفال بسيارتها الزيتونية اللون في مثل لون عينيها، وذهبت معها للفيلا الجديدة، وفي الطريق قلت لها:

- أخشى يا وجدان أن ينزعج والدكِ من حضوري المبكر هذا قبل أن يبدأ الحفل بكثير.

- لا تخافي، لن يحدث هذا، بابا يسألني عنكِ باستمرار... هو يعرف أنكِ صديقتي المقربة، هو أيضًا الذي طلب مني أن أصطحبك إلى هنا منذ الصباح.

كانت الفيلا أجمل من أي وصف، تخطف الأنظار بجمالها وفخامة أثاثها، تُحيط بها حديقة بديعة، ويتصدرها حمّام سباحة تتلألأ بداخله المياه الزرقاء.

استقبلني والدها بترحاب شديد، وبسعادة بدت في عينيه اللتان ورثت وجدان لونهما الزيتوني الجذاب... ثم أخذ يقوم بتوزيع المهام عليّ أنا ووجدان لنساعده في الترتيبات النهائية للحفل... أعطى كل واحدة منا ورقة بها قائمة بما يجب التأكد منه قبل بدء الحفل، وطلب منا كلما انتهينا من بَنْد بها، أن نضع علامة صح أمامه... كنتُ سعيدة وأنا أتحرك في تلك الفيلا الجميلة، وأنتهي من التأكد من البنود المخصصة لي في الورقة، وأضع علامات صح أمامها... وبعد أن انتهينا من كل المهام؛ أخبرنا بأنه قد أعد مفاجأة لنا وهي مكافأة لتعبنا هذا اليوم، وطلب مني أنا ووجدان أن نذهب لحجرتها، وهو سيُحضر المكافأة بعد قليل... كنا في شوق لمعرفة المكافأة وجلسنا ننتظره في ترقب.

حضر بعد قليل، يحمل فوق يديه فستانين جميلين؛ قدم لي فستان أزرق اللون، ولوجدان فستان وردي اللون... نظرَتْ وجدان بنظرة استغراب للفستان الذي كان يمد يده به في اتجاهي، وشعرتُ أنا بالخجل؛ لم أتوقع مكافأة كهذه، وكيف

لي أن أقبل هذه الهدية التي تبدو باهظة الثمن، هل يحق لي أن أقبل؟ وعندما حاولت الشكر والرفض، لم يسمح لي، وطلب منا وكأنه أمر بأن نرتدي الفساتين بسرعة قبل أن يبدأ الحفل ويحضر المدعويين.

خففت وجدان من وقع الموقف الذي لم نكن نتوقعه نحن الاثنتين، ومن ارتباكي الذي بدا واضحًا بقولها:

- أخيرًا سأراكِ يا فراق وأنتِ ترتدين فستان... لم أتوقع هدية كهذه من بابا؛ لكنها هدية جميلة.

كانت المرة الأولى لي التي أرتدي فيها فستان كهذا، ولم يكن في مقدوري أن أشتري واحدًا مثله... كان الفستان وكأنه تم تفصيله خصيصًا لي، كيف له أن يعرف مقاسي بهذه الدقة!... كان جميلاً، وقمت بفرد شعري الطويل؛ فبدوتُ كما قالت لي وجدان وكأنني الأميرة النائمة، لا أدري لماذا إختارت لي هذا اللقب رغم أني كنت في كامل استيقاظي.

كانت ليلة ساحرة، والفستان جميل، والطعام لذيذ، وكل شيء خيالي ومريح، ما عدا نظرات وجدان تجاهي كلما مر والدها بجوارنا أو نظر ناحيتي، وكأنها تشعر بالغيرة مني... كيف لها أن تفعل هذا؟ وأنا لم أره في حياتي إلا مرات قليلة.

انتهى الحفل بعد منتصف الليل بقليل، واستبدلت الفستان بملابسي، وشكرتهما عليه وعلى الليلة الجميلة، وطلبت من وجدان أن تقوم بأخذي لأقرب مكان يمكن أن أجد فيه عربة أستطيع العودة بها للبيت؛ لكن والدها رفض كل ما قلته، وأصر على أن آخذ الفستان معي فهو هدية لا يمكن ردها، وكذلك قال أنه سيقوم بتوصيلي للمنزل في هذا الوقت المتأخر؛ لم أستطع قول شيئًا، وكذلك وجدان التي قالت أنها متعبة وتركتنا وصعدت لحجرتها.

في الطريق لم أقل شيئًا، ولاحظت أنه ينظر ناحيتي بين الحين والآخر؛ لكني تجاهلت كل هذه النظرات... لم أدله على طريق المبنى الذي أسكن فيه، لكنه أوصلني حتى هناك دون سؤال واحد، هل كان يعرف الطريق من وجدان أم ماذا؟ شكرته وأخذت الفستان، دخلت المبنى بسرعة، وصعدت السلم في عجالة، دخلت الشقة ووضعت الفستان بجواري ثم احتضنته ونمت.

بعد هذه الليلة لاحظت أن وجدان تتجنب ذكر والدها أمامي، ولم تدعوني لحفلات أخرى في منزلهم؛ وتجاهلت أنا كل هذا، وانشغلت تمامًا في الدراسة وفي العمل في المكتبة، ونسيتُ كل شيء؛ إلى أن وجدته بعد حوالي عامين من تلك الليلة يقف أمامي في المكتبة، لم تكن وجدان معه، وكان كما هو يحمل نفس السحر:

- فراق، كيف حالكِ؟ هل تتذكرينني؟

- بالتأكيد يا بشمهندس... حضرتك من الأشخاص الذين لا يمكن نسيانهم.

اتسعت ابتسامته، وقال لي أنه كان بالقرب من هنا، وأراد شراء بعض الكتب؛ ثم سألني عن أحوال الدراسة، وشجعني على التفوق، وكذلك أخبرني بأن لي مكانًا أنا ووجدان في مكتبه الهندسي بعد التخرج... ثم اختار بعض الكتب التي دفع ثمنها، وسلم عليّ مرة أخرى وذهب.

لم أرَه مرة أخرى إلا يوم حفل التخرج في الكلية، حيث كان سعيدًا سعادة حقيقية بتخرجي أنا ووجدان، وطلب مني أن أحضر بعد أسبوع لمكتبه حتى أتسلم وظيفتي الجديدة كما وعدني، شكرته بشدة، وكنتُ في غاية السعادة، ولم تقل وجدان شيئًا.

****

5

أفرطتُ كثيرًا في التفكير تلك الليلة التي نصحني فيها أستاذ مينا باستشارة طبيب نفسي؛ فرأيتُ في منامي حلمًا طويلًا هو بمثابة كابوس متعدد المصائب، بدأ الحلم باستيقاظي من النوم على صوت طرقات قوية على باب شقتي، وقد كان الأستاذ مينا هو الذي يطرق باب الشقة بقوة لا تتناسب مع سنين عمره التي تقترب من السبعين؛ فتحت الباب وصعقني ما رأيته؛ فقد كان بلا وجه، ظهرت مكان وجهه سحابة رمادية اللون... وهو بمجرد أن رآني تراجع للوراء مندهشًا، وقد أصبح الآن لا يرى وجهي بل يرى السحابة... هدّأت من روعه، وأحضرت له كوبًا من الماء؛ ثم تمالك نفسه وبدأ يتحدث معي:

- استيقظت منذ قليل، وذهبت للحمام، لكن عندما نظرت في المرآة لم أجد وجهي فيها؛ اختفى، تبخر، ظهرت مكانه هذه السحابة... هل ترينه أنتِ أم ترين السحابة؟ ومالي لا أرى وجهكِ أنتِ أيضًا، ما هذه السحابة التي تظهر مكانه؛ ما هذا الذي يحدث؛ هل من تفسير؟

- اهدأ يا أستاذ مينا حتى يمكننا التفكير... حدث لي بالأمس ما حدث لك اليوم؛ ترى هل هناك من رابط بين الاثنين؟ وما هو السبب، وهل حدث هذا لآخرين؟... أسئلة كثيرة تملأ رأسي الآن، ولا أجد لها أي تفسير.

- هل يمكن أن يكون هذا مرض وقد أصابني بعد يوم من رؤيتي لكِ؛ وأصابكِ أنتِ بعد يوم من رؤيتكِ لشخص آخر لديه هذا المرض؟

- لقد فكرتُ أنه ربما يكون مرض؛ لكن إذا كان تحليلك هذا صحيحًا، فأنا لم يصبني أحد، وربما أنا المريض رقم صفر... لأني ببساطة كنا في نهاية الأسبوع، ولم أخرج من البيت، أو أرى أحد لمدة يومين قبل أن يختفي وجهي وتظهر مكانه السحابة.

- ولكي نتأكد من صحة هذا الافتراض، هيا اذهبي للعمل، وتأكدي ممَن رأوكِ بالأمس هل لديهم وجوه اليوم، أم اختفت هي الأخرى وظهرت مكانها السُحب؟

- هذا ما يجب عليّ فعله حالًا.

أمام المبنى الذي أسكن فيه أخذت أتلفت من حولي بحثًا عن سامح الذي أجده في انتظاري معظم الأيام، أردتُ أن أتأكد إذا كان وجهه قد تحول هو الآخر لسحابة أم لا، وقد كان ثاني شخص يراني بوجه السحابة بعد أستاذ مينا... ربما تحول وجهه لسحابة وهو يقف الآن أمام المرآة في حيرة مما يرى ومما يجب أن يفعل.

في مقر الشركة كان تأكيد الافتراض في انتظاري؛ كل مَن رآني بالأمس كان يسير أمامي بلا وجه، بسحابة لها درجة لون حسب شدة الحالة النفسية التي عليها صاحبها؛ موجة من الفزع والتوتر كانت تملأ المكان لكل مَن لديه أو ليس لديه سحابة مكان وجهه؛ رعب، خوف، ودموع تهطل من السُحب التي تعلو الرؤوس.

لا أدري كيف عرفت السلطات بهذا؛ ووجدنا عربات أمن تطوق المكان من الخارج، ورجال صحة بأرديتهم البيضاء وأقنعة تغطي وجوههم ينتشرون من حولنا... أخذونا جميعًا، كل مَن له وجه أو ليس له وجه، في عربات كبيرة مُصفَحة، ثم أدخلونا مكان متسع لا أعرف له اسم أو موقع؛ الذين مازال لديهم وجوه في حجرة كبيرة، ومَن ليس لديهم وجوه في حجرة أخرى مشابهة لها؛ حجرات واسعة بها العديد من الكراسي ومضاءة بلمبات فلورسنت بيضاء، كل شيء فيها يبدو قاحلًا وجافًا... وكلما مر الوقت أرى أشخاصًا جدد يدخلون الحجرة، عرفت أستاذ مينا من علامة الصليب في يده ومن صوته، وعرفني سامح لا أدري كيف؛ وجلسنا ثلاثتنا متجاورين في صمت مطبق، ننظر لكل السُحب التي تتحرك من حولنا.

بدأت التحقيقات مع الجميع واندلعت الأسئلة: متى حدث هذا لكل منا، وأين تواجدنا منذ أن حدث هذا، ومَن رأينا منذ ذلك الحين، وعناوين من رأيناهم، وأماكنهم... كانوا يحاولون السيطرة على هذه الحالة التي كان من الواضح أنها تتفشى بسرعة تفوق سرعة تحركهم لاحتوائها... لكن هل كان الوقت في صالحهم؟ وهل يمكن لحالة كهذه تنتقل بمجرد النظر أن يتم السيطرة عليها؟

مرعب أن تسمع أحدهم يتحدث إليك وعندما تنظر إليه تجد سحابة مكان الوجه؛ لا شفتان تتحركان، لا أعين تنظر فيها، ولا تعبيرات وجه تستدل منها على حالة الذي يتحدث أمامك.

كنا أصحاب الوجوه التي أصبحت سُحب نتعرف على بعضنا البعض من خلال ما نرتديه، وعلى الحالة النفسية لكل منا من خلال لون سحابته... ولكن هذه المعرفة متغيرة بتغير الملابس وبتغير لون السحابة... وأيضًا إذا تحدث شخص ما يقف وسط مجموعة لن تعرف مطلقًا أيًا منهم الذي يتحدث؛ تسمع الصوت فقط ولا ترى الوجه النابع منه.

استمرت التحقيقات والبحث، وتزايد أعداد الذين تختفي ملامح وجوههم بصورة سريعة جدًا، وكثرت السُحب وتكاثرت بشكل كبير... تحققت نظرية الأستاذ مينا في تحديد انتشار المرض، بأنه يحدث بعد يوم من رؤية شخص قد اختفت ملامح وجهه... أصبح الجميع يتحدث عن الوباء الجديد؛ في الصحف، والإذاعة، والتليفزيون، وعلى شبكة الانترنت التي اشتعلت بالأخبار التي لا تنطفئ والإشاعات التي لا تهدأ... أصبح الناس يخشون النظر في وجوه بعضهم البعض؛ فقد يكون في هذا إضاعة لملامحهم... حبس أصحاب الوجوه أنفسهم في منازلهم حتى لا تقع أبصارهم على أحد لديه العدوى، تعطل العمل وعمت الفوضى... تم منع السفر بين المدن والقرى، وحظر السفر من وإلى الخارج... ارتبكت الحياة بشكل كبير، وانعدمت الثقة بين الناس؛ فإذا كنت بوجه سحابة، قل لي ما هذا الذي قد يثبت أنك الشخص الذي تدعي أنك هو؟!

في الحلم كنا نجلس في حلقة دائرية، مجموعة لا تقل عن عشرة من أصحاب السُحب في رؤوسهم؛ نتبادل الأفكار عن نتائج تفشي هذا الوباء، مَن يبدأ بالكلام يرفع يده ويظل يرفعها أثناء حديثه حتى نعرف أنه هو الذي يتكلم... بدأ الحديث رجل رفيع ذو شعر رمادي ناعم يزاحم الأبيض فيه الأسود، ويدان يابستان، وسحابة تميل قليلًا للاصفرار:

- توابع هذه المشكلة أكبر مما قد يتصوره أحد؛ فالوجه هو ما يُحدد هوية مَن نتعامل معه؛ وكم من خيانات قد تحدث بسبب اختفائه، وكم من طُرق احتيال ونصب نحن مقبلون عليها... نحن في مصيبة كبيرة وغضب إلاهي؛ ربما كانت لعنة.

بعد أن أنهى حديثه، رفعت سيدة بدينة يدها؛ يد بيضاء بضة، ذات أظافر مطلية باللون الأحمر، وهي كانت قصيرة القوام، لها شعر أصفر طويل، وسحابة وردية اللون:

- مع تفشي هذا الوباء، ستختفي جراحات تجميل الوجه؛ لن يهدد تقدم العمر الوجوه بعد الآن، وليقل الجميع وداعًا للتجاعيد... ستُصبح للأيدي والأرجل والشعر قيمة أكبر في مضمار الجمال، وجمال الأظافر سيكون من النقاط الهامة في مواصفات ملكات جمال العالَم.

ثم رفع يده رجل متوسط الطول والحجم، أسمر اليدين، له بعض الشعيرات السوداء على أصابعه المكتنزة، وسحابة رصاصية داكنة مكان وجهه؛ وبدأ يتحدث:

- سيقع الرجال بعد ذلك في حب ذات الأيدي الجميلة والقوام المتناسق والصوت الرخيم؛ لن نقول بعد اليوم ما شكلها؛ سنقول ما شكل جسمها، منحنياته، طولها، ووزنها؛ وما شكل يديها، وأظافرها؛ وما هو طول شعرها، وحلاوة صوتها.

ثم رفع طفل يبدو في العاشرة من عمره يده؛ يعرف الجميع أنه طفل من طوله وصوته، وكانت له سحابة ناصعة البياض:

- عندما نلعب الكرة يجب أن نرتدي ملابس عليها أسمائنا أو أرقام حتى نعرف مَن سيُسجل الهدف... لكن إن قال أحد في الفصل كلمات بذيئة فلن نستطيع معرفته أو معاقبته.

ثم رفع يده رجل طويل، رفيع، مجعد الشعر، ذو سحابة رمادية قاتمة:

- من الآن فصاعدًا سنكتب نحن الشعراء قصائدنا في ذات الأصابع الطويلة، والأظافر القوية، والشعر الحرير، والصوت الموسيقي... ولننسَ الأشعار التي تتغزل في جمال العيون والشفاه، في بياض الوجه ورقته وجماله.

ثم رفعت سيدة يد بيضاء، طويلة الأصابع، مطلية الأظافر بأكثر من لون، ولها سحابة أرجوانية اللون في وجهها:

- ستفقد الكاميرات قيمتها، ولن يكون للصور أي معنى؛ فلن يعرف أحد مَن هؤلاء الذين يظهرون في الصور؛ فالجسم والشعر والملابس لا يمكن أن تكون هوية لصاحبها، والسُحب تتشابه في هيئتها وألوانها.

ثم رفعت سيدة يدها التي بدت متغضنة ظاهرة العروق، مما يدل على أنها سيدة كبيرة في السن، ترتدي حجاب يلف رأسها، وذات سحابة بيضاء في المنتصف، رمادية على الجانبين:

- سيجد الكذب بيئة صالحة للانتشار والتفشي؛ فلن يعرف أحد إذا كذبت عليهم بشأن سنك أو وظيفتك أو شكلك أو ابن مَن أنت.

ثم رفع رجل أبيض الشعر، أسود السحابة، يدًا متيبسة:

– قد يظهر لنا أي شخص ويقول أنا المسؤل الفلاني، أو أنا الطبيب الفلاني، ومَن سيكون بإمكانه إثبات صحة ما يقول؛ قد يحل أي شخص مكان مَن يشبهه في الجسد... وستُصبح الجريمة أكثر تعقيدًا، وإثبات الجاني من أصعب ما يكون.

قال الجميع كل ما يمكن قوله؛ ووجدت أنه لم يكن هناك شيئًا آخر يمكن أن يُقال؛ لذا لم أرفع يدي، ولم أقل شيئًا.

في نهاية هذا الحلم الطويل، تم تحديد أنني أنا المريض رقم صفر الذي نشر هذه اللعنة؛ أمطروني بالأسئلة، وأخذوني لبيتي، وفتشوه جيدًا؛ بعثروا كل ما فيه، وقلبوا كل الأشياء رأسًا على عقب... وكانوا يُمسكون كل شيء ويُلوحون به في وجهي ويسألون: (هل هذا هو السبب؟ هل هذا هو السبب؟)... ملابسي، كتبي، أحذيتي، أدواتي الشخصية، صورتي مع أبي، اسمي المرسوم بخط الأستاذ مينا، خطاب تاج وصناديقه، مذكرات مصباح7 وساعته وقميصه.

استيقظتُ من هذا الحلم (الكابوس) وأنا ألهث بشدة، وأتصبب عرقًا... إنها لمصيبة لو كان هذا وباء قد يصيب الجنس البشري... ذهبت بسرعة وأخرجت ميراث تاج؛ الصناديق، والمذكرات، والخطاب، وكل ما تركه لي... ترى هل كان هذا الحلم به علامات تُخبرني عن سبب ما أنا فيه؟ هل هذه الأشياء التي هي مخلفات لعنة قديمة هي التي تفعل كل هذا بوجودها معي؟

لم أستطع أن أُجزم بأي شيء، ولم يكن في مقدوري التخلص من ميراث تاج الذي تركه لي... فأعدتُ كل شيء لمكانه، وقررتُ أن آخذ بنصيحة الأستاذ مينا وأذهب لطبيب نفسي؛ فقد يكون العلاج لديه... وأخذتُ أُطمئن نفسي وأقول لها: "إنه مجرد حلم، والناس كلها في أمان من حولي، ولا أحد قد اختفى وجهه غيري؛ هي فقط مخاوف من عقلي الباطن تحولت لهذا الكابوس الطويل".

****

6

بعد تخرجي أنا وصديقة دراستي المقربة "وجدان" من كلية الهندسة قسم الهندسة المعمارية؛ عملنا معًا في مكتب والدها المهندس المعماري؛ كانت أسعد أيام حياتي في العمل، وقتها نبض قلبي بالحب للمرة الثانية، تجاه رجل مكتمل الرجولة، مكتمل المشاعر... وكل ما كان يخيفني في هذا الحب هو أن الحبيب والد صديقتي الوحيدة.

بعد عدة أسابيع من بداية حياتي العملية السعيدة، استيقظتُ على صوت رسالة من رقم مجهول على الموبايل؛ فتحتها فوجدت هذه الرسالة (صوتكِ يشبه مقطوعة موسيقية... تعزف كلماتها على جدران القلب)؛ نظرتُ للرقم الذي أرسل هذه الرسالة، لكني لم أكن أعرفه، مجرد رقم مجهول، ربما صاحبه أخطأ في إرسال هذه الرسالة؛ لكنها على كل حال رسالة مبهجة، صنعت لي صباحًا جميلًا... وعندما خرجت من البيت للذهاب للعمل، كان سامح في انتظاري أمام المبنى بابتسامة أكبر من المعتاد، وظل يسير بجواري حتى ركبت تاكسي وأنا أسأل نفسي: "ترى، هل هو صاحب الرقم المجهول الذي أرسل لي رسالة الغزل الصباحية التي تلقيتها اليوم؟".

بعد أسبوع وأنا عائدة من العمل رأيت سامح على السلم، نظر لي ولم يقل شيئًا، وبعد قليل وجدتُ رسالة جديدة من الرقم المجهول يقول فيها (نظرتكِ تشبه شمس؛ تُذيب ثلوج البعاد)... كم أنت شاعر أيها الغريب، وكلماتك بلسم... لم يكن لديّ فضول لأعرف مَن هذا الذي يُرسل لي هذه الكلمات الجميلة، ليكن سامح أو ليكن مَن يكون، يكفي أني أستمتع بها، وأتمنى أن تستمر هذه الرسائل حتى وإن كانت عن طريق الخطأ.

بعد هذه الرسالة المسائية الجميلة التي عدلت من مزاجي كثيًرا؛ قمت بعمل عشاء خفيف وشهي، أومليت بالشوفان؛ خفقت بيضتان، وأضفت لهما شوفان، فلفل ألوان، ملح، فلفل، بقدونس ثم أنضجتهم على نار هادئة، وفي النهاية وضعت على وجه الأومليت شرائح زيتون؛ وأصبح طبق العشاء لوحة فنية جميلة، قمت بتصويرها قبل أن ألتهمها.

استمرت هذه الرسائل الجميلة تأتيني كل أسبوع أو أسبوعين من ذلك الرقم المجهول، وفي صباح أحد الأيام بينما أنا أقف في الشارع في انتظار تاكسي، وبجواري يقف سامح؛ سمعتُ صوت رسالة جديدة على الموبايل، فنظرت إلى سامح باندهاش، لكنه لم يكن يحمل أي تليفون في يده، إذًا فمن المؤكد أنه ليس هو صاحب هذه الرسائل، أخرجت الموبايل وقرأت الرسالة (ابتسامتكِ هي الحد الفاصل بين زُرقة البحر وزُرقة السماء).

وقعت في حيرة شديدة ممَن عساه قد يكون صاحب هذه الرسائل، إنه ليس سامح، فمَن إذًا؟... من المستحيل أن يكون أستاذ مينا أو أستاذ محمد إبراهيم، هل من الممكن أن يكون دكتور رضا؟... قمت بالاتصال بالرقم المجهول لكن لم يكن هناك أي رد على اتصالي... في المساء عاودت الاتصال مرة أخرى، فتح الخط لكن لم أسمع أي صوت على الطرف الآخر... قررت أن أتجاهل كل هذا، ولا بد أن الأيام ستكشف لي عن صاحب هذه الرسائل.

في الأشهر الأولى من العمل تقدمت بخطوات واسعة وثابتة لإثبات أنه رغم أني حديثة التخرج إلا أني أستحق هذا المكان، وأثنى عليّ كبّار المهندسين بالمكتب؛ كنت أكثر نجاحًا من وجدان، ولديَّ قدرة أعلى على التعلم بسرعة، وشجاعة أكبر على أخذ المسؤلية فوق عاتقي.

ثم بدأت ألاحظ أن والد وجدان يولي ناحيتي اهتمامًا خاصًا... في اجتماعاتنا الصباحية ومناقشات المشروعات الجديدة، كان لي النصيب الأكبر من نظراته وأسئلته؛ رغم أني الأصغر سنًا من بين الجميع، والأقل خبرة... هل من الممكن أن يكون هو صاحب الرسائل التي تأتيني من الرقم المجهول؟... غير معقول، فأنا في عمر ابنته، بالإضافة إلى أنه شخص عملي، ولا أُصدق أنه قد يفعل هذا.

في إحدى الأيام كنت في مكتبه لأُطلعه على بعض اللوحات؛ فقال لي:

- فراق، أنتِ تشبهين زهرة.

ابتسمتُ بفرح طفولي، وسعدتُ كثيرًا بتشبيهه لي بزهرة، كانت المرة الأولى التي يفعل فيها أحد هذا ويشبّهني بالزهور، لا بد وأنني في نظره نضره وعطره... بعدها كنت أفكر كثيرًا في أنواع الزهور، أي زهرة هذه التي يُشبّهني بها؟ هل أنا زهرة أوركيدا بيضاء، أم زهرة عصفور الجنة؟ ربما كنت زهرة نرجس، ليتني أكون زهرة توليب.

في البداية كنت أراه اهتمامًا عاديًا من صاحب المكتب بموظفة جديدة حديثة التخرج ومملوءة بالحماس للعمل وللحياة؛ ثم انتبهت إلى أنه لم يكن كذلك... نظراته، كلماته، مراقبته لتحركاتي أحيانًا، اختلاق الأسباب للحديث معي، وأخيرًا تصريحه لي بالحب.

كنا في آخر يوم في الأسبوع، ولم تكن وجدان قد جاءت للمكتب في ذلك اليوم، وبينما أنا أستعد للانصراف، وجدته يطلب مني الانتظار قليلاً كي يسألني عن بعض اللوحات؛ جلست أمامه وفي يدي لوحة لأحد المباني التي انتهيتُ من رسمها في ذلك اليوم؛ فردتها أمامه كي أعرضها عليه، لكنه طواها مرة أخرى ونظر مباشرةً في عينيّ:

– فراق، كما تعرفين أنا لا أحب المقدمات الطويلة، ولا الدوران حول المواضيع... باختصار أنا مُعجَب بكِ وأريد الزواج منكِ.

كانت جملة واحدة، لكنها حملت الكثير من الأشياء، جائت مفاجِئة ومباشِرة... ارتبكت وتلعثمت؛ حاولت أن أقول شيئًا لكن جاءت كلماتي غير واضحة وغير مفهومة:

– لكن أنا، وجدان... الـ ...

– لا أريد منكِ إجابة فورية؛ خذي الوقت الذي تريدينه في التفكير؛ يمكنكِ أن تذهبي الآن إذا أردتِ.

وبالطبع كنت أريد؛ الموقف كان مفاجئًا وأكبر من قدرتي على التصرف والرد، أو حتى التفكير في شيء؛ لذا فقد انسحبت من أمامه دون كلمة واحدة، وخرجت من المكتب وأنا في حالة غير التي دخلته فيها... كنا في نهاية الأسبوع لذا كان لديّ يومين أجازة كاملين للتفكير كما يحلو لي؛ ظللت طوال اليومين أفكر في هذا العرض الذي وجدته فجأة أمامي؛ هل أقبل، هل أرفض، أم ماذا أفعل؟... سألت نفسي: "هل أحبه؟"؛ ووجدت أني مُعجَبة بشكله وبشخصيته منذ المرة الأولى التي رأيته فيها وأنا طالبة في الكلية، عندما ذهبت مع وجدان لمنزلهم؛ كنت أراه شيء لامع وبعيد، نجم في سماء لا يمكن أن تصل إليها أيدي فتاة ضعيفة فقيرة مثلي، ومازلت حتى اليوم أراه هذا النجم البعيد، فلماذا يحاول الاقتراب هكذا؟

سألت نفسي السؤال الأهم: "هل الإعجاب وحده كافي للزواج؟"؛ وأجبت نفسي بصراحة: "أعتقد لا، لكنه بداية طريق ناجح للحب"؛ ثم سألت نفسي مرة أخرى: "هل يمكنني أن أحبه؟"؛ وكانت الإجابة "نعم، لو أعطيتُ قلبي وعقلي فرصة للتفكير فيه"... أما عن فارق العمر؛ فلا أجد أنه مشكلة بالنسبة لي... لكن ماذا عن ماضيَّ الذي لا

يعرفه؟ هل سيقبل أن يتزوجني عندما يعرف أني بنت حفار قبور، تربيت في المقابر، وخرجت للدنيا منها... وماذا أيضًا عن صديقة عمري وجدان؛ هل ستتقبل أن أتزوج من والدها؟ كان هذا هو الجزء الأصعب في الحكاية كلها.

طحنتني الأسئلة، واشتعل رأسي بالتفكير، ولم أكن متأكدة من شيء، ولا أعرف كيف ستكون خطوتي القادمة، فلجأتُ لإعداد وجبة طعام جديدة؛ أُخفف بها الضغط المتزايد على عقلي وقلبي، فالطعام هو طريق الهروب الذي ألجأ إليه عندما تكثر الضغوط من حولي أو في داخلي... أحضرت أحد كتب الطبخ التي لديّ، واخترتُ منه طبق (دجاج بالجبن والأعشاب)... وضعت كل المكونات أمامي كما هو مذكور في الكتاب، ثم اتبعت الطريقة بالخطوات حتى أصبح لديّ وجبة عشاء لذيذة؛ وضعتها في طبقين وذهبت لأتناولها مع أستاذ مينا، وآخذ رأيه في موضوعي هذا:

- خير يا شروق؛ لا تأتين ومعكِ طعام إلا وكان هناك موضوع ما يشغلكِ أو يحيركِ.

- بالفعل يا عمو مينا، أنا في حيرة كبيرة وأريد نصيحتك.

جلسنا نتناول الطعام، وحكيت له الموضوع بكل ملابساته، وعرضت عليه خوفي وحيرتي، وكيف أني نظرت للموضوع من كل مساقطه الرأسية والأفقية والجانبية؛ ومازلتُ لا أعرف كيف يمكنني رسمه كي أضعه في لوحة نهائية مقبولة... فقال لي باختصاره وحكمته المعتادة:

- لا تتسرعي بالرفض ولا بالقبول؛ أعطي قلبكِ فرصة كي يقرر.

بالفعل لم أمنحه ردًا سريعًا، وهو لم يتعجل قراري؛ ومع الأيام وجدتُ أنه مثال جيد لحبيب مثالي؛ فتركتُ نفسي أحبه، ووجدتُ قلبي ينجذب إليه... وكأنه قد شعر بهذا، فترك لي في إحدى الأيام على مكتبي ظرف خطاب به دعوة للعشاء في مطعم راقي؛ ترددت في البداية لكني قررت أن أذهب... جائتني دعوته يوم الخميس، وموعد العشاء مساء الجمعة؛ وقبل أن يخرج من المكتب وقف أمامي وقال بابتسامته الساحرة: "لا تتأخري"... وهززت رأسي بالموافقة، دون كلمة واحدة، دون حرف واحد.

عدتُ للمنزل، وأنا أشعر بسعادة خفية، تنبع من نقطة صغيرة داخل قلبي، ثم تضخها الشرايين مع الدم لكل أنحاء جسمي... أخرجت كل ما لديّ من ملابس؛ وأخذت أُفاضل بينها فيما قد يصلح للقاء كهذا، لحبيب كهذا... ولم

يكن بها شيئًا يصلح على الإطلاق... أمسكتُ بالفستان الأزرق الذي أحضره لي يوم أن ذهبت لحفل انتقالهم للفيلا الجديدة، أصبح الفستان أصغر مقاسًا عليّ الآن، وأنا أمسكه بيديّ، مرت في رأسي كل أحداث تلك الليلة الجميلة التي ارتديته فيها، ترى هل كان يحبني في ذلك الوقت لذلك أحضر لي هذا الفستان؟ لا، لا غير معقول... الحقيقة أني لم أعد أُدرك ما هو المعقول وما هو غير المعقول في دنيانا العجيبة هذه.

قررتُ شراء فستان جديد، وحذاء جديد، لحياة جديدة، لحب جديد؛ وفي الصباح التالي، خرجتُ بغرض هذه المهمة؛ وعدتُ بأجمل فستان اشتريته في حياتي، وأكثر حذاء مرتفع عن الأرض أقوم بشراءه... وقبل الموعد بوقت كافي، ارتديتُ الفستان والحذاء، وأخذت أسير بهما في المنزل كتدريب عملي على مظهري الجديد، ثم ارتديتُ بعض الحُلي مما أمتلكه، ووضعتُ بعض مساحيق الزينة البسيطة، وأصبحت جاهزة تمامًا لهذا اللقاء الأول من نوعه في حياتي، ثم تشجعت وذهبت؛ بصورة غير عملية ذهبت، بقلب ينبض بالحب ذهبت.

****

7

لم أكن أعرف أي طبيب نفسي، وظل يُلح عليّ اقتراح أستاذ مينا في أن أذهب لاستشارة طبيب نفسي؛ لذا فقد بحثت على الانترنت عن طبيب يكون قريبًا من المنطقة التي أسكن فيها، بشرط أن أشعر براحة تجاه اسمه، كانت هذه طريقتي في الاختيار أحيانًا، طريقة غير علمية وغير منهجية، لكني أحبها في بعض الأوقات... وجدت القليل من الأطباء النفسيين بالمنطقة التي أنا فيها، طبيبان وطبيبة... قارنت بين أسماء الثلاثة، ثم اخترت الاسم الذي بدا مريحًا لي عندما قرأته، بدا أيضًا فريدًا مثل حالتي... وكان من نصيب الطبيبة (فريدة فادي)، أعدتُ قرائته مرة أخرى بصوت عالي، واستحسَنَت أذنايّ كل مقاطع الإسم، وقلت لنفسي: "لا بد وأن شخصيتها مريحة مثل اسمها"، فهكذا يجب أن يكون الطبيب النفسي، صاحب روح تجذب إليه كل مَن يراه، حتى يفتح له المريض خزائن حكاياته دون خوف ودون حواجز... أعترف أنها طريقة غريبة في الاختيار أتبعها أحيانًا، تجعلني أمشي وراء قلبي في العديد من الطُرق، لم أمشِ وراء وجهي في طريق واحد من قبل؛ وها هو ذا يجعلني أفعل ذلك رغمًا عني.

قمتُ بالاتصال بعيادة هذه الطبيبة النفسية، وتم تحديد موعدًا لي في السابعة والنصف مساءً... لم أكن أتوقع أن حجز الميعاد سيكون في نفس اليوم، لكن هذا ما حدث؛ فأخذتُ أستعد بالكلمات التي يجب أن أقولها لوصف حالتي الغريبة هذه، بعزيمة قوية وأمل في الشفاء (إن كان هذا مرضًا) يجب أن أذهب.

لبقية اليوم وأنا أفكر في احتمالية أن يكون هذا مرضًا، لكن إن لم يكن كذلك، فهل من الممكن أن يكون بسبب نقص فيتامين معين: فيتامين أ أو ب أو د أو أيًا كان... أو ربما فيتامين جديد من نوعه لم يعرفه الطب بعد، ونقصه يؤدي إلى تحول ملامح الوجه إلى ملامح سحابة.

السماء اليوم محتشدة بالغيوم، لذا فقد وقفتُ في النافذة، وأخذتُ أواصل النظر إليها، هذه التي تشبه وجهي لكن بأحجام مختلفة، وحرية أكبر في التنقل من مكان لآخر في سماوات متسعة... أتخيلها أحيانًا وقد تحولت لوجوه، وجوه كبيرة تسبح في السماء، وهي على وشك أن تهطل متساقطة على الأرض.

ربما كانت هذه السحب كائنات حية، تسمع وتتنفس، تشعر بالأرض العطشى فتذهب لتسقيها... إنها تشبه الأسماك لكنها تسبح في بحار أخرى مرتفعة تسمى السماوات، أسماك لا يأكلها البشر لكن تأكلها الأرض، فالسُحب هي بمثابة طعام للأرض... ليت في استطاعتي اصطياد بعض السُحب والاحتفاظ بها بالقرب من سقف منزلي، حتى تؤنس وحدة وجهي.

لم تكن عيادة الطبيبة النفسية مزدحمة، ولم أنتظر غير دقائق قليلة.

حجرة الطبيبة كانت متسعة وأنيقة، مكتب من الخشب الزان البنيّ، وكراسي بنّية اللون أيضًا، لوحة لمنظر طبيعي خلاب، مكتبة بها كتب ضخمة تبدو أنها كتب علمية، وهناك أكواب شفافة بها شموع متناثرة بين الكتب، وتسائلت بيني وبين نفسي عند رؤيتها عمَن يُنير أكثر: الكتب أم الشموع؟... الطبيبة التي اخترتها لأن اسمها جذبني من خلال تصفحي على الانترنت كانت جميلة، ذات عيون رمادية اللون، وشعر أصفر، ترتدي ملابس أنيقة، وتنظر على شاشة كمبيوتر أمامها... تبدو وكأنها في منتصف الثلاثينات من عمرها، شكلها مريح كما توقعت، ولا أعرف شيئًا عن تاريخها العلمي في الطب النفسي... أشارت لي بالجلوس وهي تكتب اسمي على روشتة الكشف ثم قالت لي:

- بشمهندسة فراق، أنا أقوم بتسجيل بيانات كل الحالات التي تأتيني على الكمبيوتر، وكذلك جرعات العلاج التي سيتلقونها، ونتائجها عليهم فيما بعد، وكل ما ينتج من تطور للحالة، وما تصل إليه من نسب شفاء... هذا يساعدني كثيرًا في كل مرة تأتين فيها أن أسترجع بدقة كل تاريخ الحالة.

- وهو كذلك.

ثم توجهت ناحيتي بالسؤال الافتتاحي الذي لا بد وأنها تبدأ به أسئلتها لكل مريض يأتي إليها:

- ما هي المشكلة التي تعانين منها؟

- الحقيقة هي مشكلة غريبة بعض الشيء، ولا أعرف حتى إذا كان لها تفسيرًا علميًا أو لا؛ فمنذُ حوالي ثلاثة أسابيع، وأنا لا أستطيع أن أرى وجهي في المرآة.

- وماذا يظهر لكِ مكان الوجه عندما تنظرين في المرآة؟

- يظهر ضباب... بمعنى أدق تظهر سحابة.

فكرت لثواني قليلة، ودون أن تطلب المزيد من التفاصيل، أعطتني تعريفًا مبدئيًا لهذه الحالة التي أعاني منها:

- تبدو هذه وكأنها حالة (Denial)، رفض... هل ترفضين واقعًا معينًا ولا تريدين رؤيته في حياتك؟

- أنا لا أحب اسمي (فراق)... ومؤخرًا قمتُ بتغييره وأعطيت نفسي اسم (شروق)، لم أستطع تغييره في الأوراق الرسمية، لكني أخبرت كل المحيطين بي بالاسم الجديد.

- ولماذا لا تحبين اسمكِ؟ أراه اسمًا جميلًا و...

وبحثت في رأسها لعدة ثواني عن صفة أخرى تضيفها لاسمي الذي ربما تسمعه للمرة الأولى في حياتها؛ ثم قالت:

- ونادر.

- لا أحب اسمي لعدة أسباب، أولها هو أن أمي ماتت وهي تلدني، وأبي هو الذي أعطاني هذا الاسم، لأنه بمولدي فارق والدتي، وفارق حلمه في أن يكون لديه ولد... ثم فيما بعد ارتبطتُ عاطفيًا بأكثر من شخص وماتوا جميعًا؛ فوجدتُ أن اسمي هو سبب كل هذا الفراق الذي يحدث لي.

- ولماذا تعتبرين أنهم ماتوا بسبب اسمكِ؟ هل أنتِ متزوجة الآن أو لديكِ أطفال؟

ثم نظرت في إتجاه يدي اليسرى فقطعت نظراتها بقولي:

- لا، لكن أحدهم مات قبل أن أرتبط به بفترة قصيرة، كان والد صديقتي ويحبني بشدة.

- والد وصديقتك؟!... كم كان عمر والد صديقتكِ عندما أراد الارتباط بكِ؟

- يقترب من الستين.

- لكنها ليست إختيارات صحيحة أن ترتبطي بشخص في عمر والدكِ... أعرف حالات أصعب من حالتكِ، شابات تزوجن من رجال في عمر آبائهن، ثم مات هؤلاء الأزواج بعد عدة أشهر، وفي حالة منهم بعد عدة أيام من الزواج؛ وتركوهن أرامل... هل كنتِ تتمنين أن تكوني إحدى هذه الحالات؟

لم أرد بشيء، ولم أعرف إذا كنت أتمنى حدوث هذا لي أو لا، ولم تسألني هي عن تفاصيل أكثر عن هذه القصة التي ذكرتها باختصار، لم تتوقف أيضًا عند اسمي الجديد (شروق)، لكنها سألتني عن أخواتي البنات اللاتي لا أعرف عنهن شيئًا.

- وماذا عن إخوتكِ؟ هل لديك إخوة؟

- لديّ أخوات بنات، لكني لا أعرف عنهن شيئًا.

- كيف هذا؟ ألا تتحدثين معهن وتزورينهن؟

غصت بعينيّ في تفاصيل لوحة المنظر الطبيعي المواجهة لي وأنا أجتر الماضي الذي كان:

- نحن سبعة بنات، أنا البنت السابعة، وكانت كلما تزوجت واحدة من أخواتي، يقول لها أبي ألا تعود إلى ذلك المكان مرة أخرى إذا استطاعت... كنا نعيش في المقابر، وبالفعل ذهبوا ولم يعودوا، وبقيتُ أنا مع أبي حتى أنهيت الثانوية العامة، وحصلت على مجموع كبير، ولم يكن في استطاعته أن يحقق لي حلمي بالالتحاق بكلية الهندسة، وفيما بعد ساعده طبيب شاب في المستشفى الذي كان يعمل فيها في أن يجد لي عملًا في إحدى المكتبات، ثم مات أبي وساعدني هذا الطبيب في استكمال تعليمي الجامعي، عقد معي اتفاقًا غريبًا من نوعه، وهو أن أكتب له خطابات في مقابل مصاريف تعليمي، ثم مات وترك لي شقته لأستأجرها بدلاً منه وأترك المقابر لأعيش فيها، ترك لي أيضًا ملابسه وكتبه وكل شيء كان له ومبلغ من المال أستطيع به مع عملي في المكتبة أن أستكمل سنوات تعليمي.

سمعتني دون مقاطعة وهي تشرب ببطء كوب ماء كان موضوعًا على مكتبها... لكنها لم تسألني عن تفاصيل أكثر عن تاج وقصتي معه، والتي ذكرتها لها باختصار شديد، أيضًا تمنيتُ لو أنها تقول لي ابحثي عن إخوتكِ واعرفي أخبارهن فقد يعيد لكِ هذا ملامح وجهكِ الضائعة؛ لكنها لم تقل شيئًا، وشعرتُ بأنها تحاول إنهاء اللقاء الذي ربما طال في نظرها وهي تقول:

- من الواضح أنكِ عانيتِ كثيرًا في حياتكِ، وكما قلت لكِ، فهذه الحالة التي لديكِ هي حالة رفض واضحة.

- أيضًا أنا لا أستطيع رؤية وجهي حتى في الصور.

- وماذا عن وجوه باقي الناس معكِ في نفس الصور؟

- أرى كل الوجوه الأخرى في الصور، ووجهي أنا يظهر على هيئة سحابة لها درجة لون مختلفة في كل صورة... هل رأيتِ حالة مثل حالتي هذه من قبل؟

- بهذا الشكل الذي تقولينه لا، لكن الرفض قد يأتي بأشكال أخرى مختلفة، مثلاً كأن ترفض العين أن ترى رغم أنه لا مرض بها، أو أن ترفض الأذن أن تسمع وهي سليمة... حدثيني يا فراق عن حالتكِ النفسية، هل تعانين من القلق أو الاكتئاب؟ هل تنتابكِ نوبات من البكاء مثلًا؟

- لا، لا يمكن أن أقول أن لديَّ شيء من هذه الأعراض، لكني شخص غير اجتماعي، لا أخرج كثيرًا، وليس لي أصدقاء، أقرأ الكثير من الكتب، وأُشاهد الأفلام، هذا كل ما أشغل به نفسي... الوحيد الذي أتواصل معه باستمرار هو جاري عمو مينا، وهو الوحيد الذي أخبرته بهذه المشكلة التي لديَّ؛ ونصحني بأن أستشير طبيب نفسي.

- ماذا عن شهيتكِ في الأكل؟

- عادية، لكني أُكثر من شرب الشاي.

- هل لديكِ أرق أو إضرابات في النوم أو تحلمين بكوابيس؟

أصبحت أسئلتها مهنية أكثر منها نفسية، لكني كنت أرد عليها كلها:

- لا، لكني رأيتُ يومًا حلمًا غريبًا، وعندما استيقظتُ من النوم وجدتُ هذه السحابة مكان وجهي.

لم تسألني عن تفاصيل هذا الحلم، وبدت غير مهتمة بمتابعة الحوار أكثر من هذا؛ ثم أخذت تكتب بعض الأدوية على شاشة الكمبيوتر، ثم في الروشته التي أمامها وهي تقول:

- ستأخذين هذه الأنواع من الأدوية بهذه الجرعات التي كتبتها لكِ، وأراكِ مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع.

نظرت لأسماء الأدوية الثلاث التي كتبتها، كان خطها على الورقة واضحًا ويمكن قرائته بسهولة على غير عادة الكثير من الأطباء... تمنيتُ لو أنها تعطيني بدلًا من هذه الأدوية ممحاة، أمحو بها السحابة فتظهر ملامح وجهي المختبأة خلفها.

سألتها وأنا أنظر لأسماء هذه الأدوية التي لا أعرف عنها شيئًا:

- وهل هذه الأدوية لها تأثير على المخ؟

– لا يوجد شيء لا يقوم بالتأثير في الجسم بدرجةٍ ما، لكن لا تخافي، فأنا قد كتبتُ لكِ تركيزات أقل منها، لكنها ستساعدكِ في تخطي هذه الحالة.

أخذتُ الروشتة منها وشكرتها، ثم خرجت من العيادة وأنا أسأل نفسي: "هل هذا هو كل ما لدى الطب النفسي؟ حوار لا يتجاوز الثلاثون دقيقة، وبعض الأدوية التي أخشى أنها تقوم بالتأثير على المخ؟"

في الطريق للمنزل طلبت من نفسي ألا أحكم هكذا سريعًا على هذا اللقاء، فربما كان الطب النفسي لا يصلح لعلاج حالة مثل حالتي هذه الفريدة من نوعها، وقد أكون قد أخطأت في طرق الأبواب التي يجب عليّ أن أطرقها... شعرتُ بأني تحدثت أمام الطبيبة كثيرًا عن نفسي، وعن حياتي الماضية، كما لم أفعل من قبل مع أحد أراه للمرة الأولى في حياتي، قلبي اليوم كان ثرثارًا أكثر من اللازم، لم يترك وجعًا إلا وباح لها به... هل كنتُ أعتبر نفسي مريضة؟ ويجب عليّ أن أبوح حتى أشفى... وهل كل ما قلته من الممكن أن تكون هي أسباب مرضي؟ ربما، ولما لا؟

في صباح اليوم التالي، وبصحبة كوب كبير من الشاي، جلستُ أبحث من خلال الانترنت عن استخدامات هذه الأدوية التي كتبتها لي الطبيبة؛ فكان الأول كما قال لي الانترنت يُعالج الاكتئاب والتوتر النفسي وحالات الهلع والقلق والخوف الاجتماعي وتخفيف أعراض الوسواس القهري... وكان الثاني حسب ما وجدتُ في أكثر من صفحة على الانترنت ينتمي لفئة يُطلق عليها اسم مضادات الذهان الغير تقليدية، ويُعالج مرض الفصام الذي يسبب اختلالات في التفكير وبعض الهلاوس البصرية والسمعية، ومرض الاضطراب الثنائي القطب والذي يسبب نوبات من الاكتئاب والهوس، ويعالج التهيج المرتبط باضطراب التوحد... والدواء الثالث والأخير وجدتُ أنه من الأدوية المضادة للاكتئاب ثلاثي الحلقات، يعمل على تنظيم المواد الكيميائية في خلايا الدماغ وتحفيز عمل الخلايا العصبية، ويمنع عمل بعض المواد الكيميائية الأخرى في المخ... وهو يعالج القلق والتوتر وحالات الهلع، وسلس البول عند الأطفال!

كل استخدام من هذه الاستخدامات التي قرأتها عن هذه الأدوية كان كفيلًا بأن يجعلني أحب الحالة التي أنا عليها، وأتعايش معها أيًا كان الشكل الذي ستظهر عليه ملامح وجهي... فأنا لديّ عقل واحد هو رأس مالي في هذه الدنيا، ولا أُريد التأثير عليه لصالح أي عضو آخر من أعضاء جسمي، حتى وإن كان وجهي، رسولي للعالَم من حولي.

بالطبع لم أشترِ هذا الدواء، ولم أذهب لعيادة الطبيبة بعد ثلاثة أسابيع، أو بعد أية أسابيع أخرى.

قررتُ أن أذهب لرؤية عمّة تاج، أحتاج لرؤية شخصية قوية مثلها، كي أستمد منها بعض القوة التي أحتاجها في هذه الحالة التي أمر بها... هي من القلائل الذين لم أطلب منهم بعد أن يستخدموا اسمي الجديد (شروق)، أريدها أن تناديني دائمًا بفراق كما كان يفعل تاج.

قمتُ بالاتصال بها؛ فطلبت مني أن أحضر في أي وقت أشاء، فهي بعد موت زوجها، وزواج كل أبنائها تعيش بمفردها... اشتريت علبة شيكولاته وذهبت إليها في يوم جمعة مشمس وجميل، أجلَستني معها في المطبخ كما كانت تفعل مع تاج، وأعدَت لي طعامًا كان يحبه، لطعامها رائحة قوية وحارة، وكأنها تعانقني وتتخلل أنفاسي... قضيتُ معها عدة ساعات جعلتني أشعر بالتحسن والارتياح، أعطتني المزيد من القوة كي أواجه الواقع بكل ما فيه... كنتُ على وشك أن أخبرها بمشكلتي مع وجهي، لكني لم أستطع؛ وكأنها شعرت بحيرتي وقلقي فسألتني:

- ماذا بكِ يا فراق؟

وكأن لسؤالها هذا عينان تنظران داخل روحي، وأصابع تُشير في اتجاه وجعي... ورغم هذا لم أستطع قول شيئًا لها، فقط قبلتها وذهبت.

عندما عدتُ للبيت، وقفتُ أمام المرآة، وأخذتُ أتطلع للسحابة التي أراها، وسألتُ نفسي: "لماذا يضايقني اختفاء وجهي؟ المهم أن الآخرين يرونه، ماذا ينقص مني إذا استطعت رؤيته أو لم أستطع؟ هل إذا عادت ملامحي سأُصبح أكثر بشرية مما أنا عليه؟ بالطبع لا، لم يتغير فيّ شيء غير وجهي، فليكن سحابة أو بحر، سماء أو أرض، فأنا كما كنت، وهكذا سأظل".

وبمنتهى التحدي، نظرت للسحابة أمامي في المرآة، وقررتُ أنه لا شيء يمكن أن يهزمني، سأمزق الخوف وأُلقي به من النافذة، سأرسم صورة بالألوان لحيرتي وأحرقها حتى لا يتبقى من الحيرة شيئًا... وسأحشو وسادتي كل ليلة بالأحلام الجميلة التي أتمناها.

****

8

في مطعم لبناني هادىء، ذو ديكور راقي، كان لقائي الأول مع والد وجدان... وبمجرد أن جلسنا على المائدة، قال لي بنفس الابتسامة الساحرة التي لا أعرف من أين اكتسبها:

- هل أعتبر قبولك لدعوة العشاء موافقة؟

- بشكل ما نعم، لكني متخوفة من وجدان؛ كيف ستتقبل الأمر؟

- لا تخافي، وجدان بنتي، وأنا ربيتها على الحرية في الاختيار لها ولي ولكل مَن حولها.

- هناك شيء آخر... أنت لا تعرف شيء عن ماضيَّ.

- أنا رجل عملي، أهتم بالحاضر، ولا تشغلني جثة الماضي في شيء.

- لكن يجب أن تعرفه.

- كلي آذان صاغية، لكن دعينا نطلب العشاء أولًا... ماذا تفضلين من أطباق؟

نظرت في قائمة الطعام وملئتني الحيرة، فقلت له:

- صراحةً، هذه أول مرة أذهب فيها لمطعم لبناني.

- إذن دعيني أختار أنا الطعام؛ فأنا من عشاق الأكل اللبناني.

أجبته بابتسامة رضا وسعادة، وبدأت أرقبه جيدًا وهو يُملي الطلبات على النادل الذي كان يكتب كل ما يقول، ظللت أنظر جيدًا للكلمات وهي تخرج من شفتيه، ولحركات يديه، وتعبيرات وجهه، للأناقة التي تفيض من ملابسه، ورائحة العطر التي تصلني حيث أجلس؛ وبدأت أُغرَم بكل هذا.

كان ينظر لي بسعادة بادية في عينيه، وكأنه غير مُصدق أن هذه الآنسة الرقيقة التي ترتدي فستان هي نفسها تلك المهندسة العملية التي ترتدي باستمرار الجينز، ومُنكفأة على لوحة تقوم برسمها أو بتحبيرها.

قطع نظراته وصول النادل الذي أخذ يضع الطعام على المنضدة، وعندما انتهى أبديت ملاحظة أنه طلب طعامًا أكثر من اللازم؛ فرد عليّ بإحدى ابتساماته... كان الأكل لذيذًا جدًا والصُحبة ألذ... وبعد الأكل بدأت أحكي له حكايتي التي يجب أن يعرفها:

- أبي أعطاني هذا الاسم "فراق" لأن أمي ماتت وهي تلدني، وبمجيئي فارقها وفارق معها حلم أن يكون له ولد منها... أنا الابنة السابعة لأبي؛ كل أخواتي البنات تزوجن وانتشرن في البلاد، ولا أعرف عنهن شيئًا، كن يذهبن الواحدة تلو الأخرى دون عودة... بمعنى أدق أنا وحيدة في هذه الدنيا... أبي كان حفار قبور إلى أن أُصيب في ساقه، وتم بترها، ثم عمل بعد ذلك ساعي في إحدى المستشفيات... وأنا وُلدت وتربيت في المقابر... حصلتُ على شهادة الثانوية العامة بمجموع كبير؛ كنتُ أحلم بأن أذهب لكلية الهندسة، لكن لم يكن في مقدور والدي أن يتحمل مصاريف كلية كهذه، أو أية كلية أخرى، لذا فقد بحث لي عن عمل؛ ساعده طبيب شاب في المستشفى التي كان يعمل فيها، ووجد لي عملًا في مكتبة؛ ثم ساءت حالة أبي الصحية ومات، وبقيتُ وحدي في حجرتنا في المقابر... كان الطبيب الشاب الذي ساعدني في الحصول على عمل يرثى لحالي، وأرادَ بأي شكل أن يساعدني في استكمال تعليمي... عقد معي اتفاقًا غريبًا من نوعه، وهو أن أكتب له خطابات وفي المقابل سيتكفل هو بمصاريف تعليمي في كلية الهندسة... هو اخترع هذه الطريقة ليُشعرني أنه لا يعطيني إحسانًا، بل مقابلًا لما أكتبه... لم يقيدني بأن أكتب شيء معين، فكنت أكتب له كل ما يخطر على بالي: يوميات، ماضي، أحلام، أمنيات، وأشياء أخرى كثيرة... استمتعت بشدة بكتابتي لهذه الخطابات؛ لكنها لم تستمر... خلال عامي الأول في الكلية، كتبت له سبعة عشر خطابًا، كانت من أجمل ما كتبت في حياتي، وستظل... ثم جاء ليودعني في آخر يوم في الامتحانات؛ لم يقل لي أنه وداع لكني شعرت به.

توقفتُ عن الكلام لأمسح بعض الدموع التي ملأت عينيّ فسألني:

- وماذا حدث له؟

- مات... هكذا ببساطة، مات، وترك لي في حسابي في البنك الذي فتحه هو باسمي، كل ما أحتاجه من نقود حتى أُكمل تعليمي في الكلية، ترك لي أيضًا منزله الذي كان يستأجره، وأوصى مالك المنزل بأن يجعلني أعيش فيه، وأوصى جاره عليّ، وأوصى حتى أصدقائه وعمّته... ترك لي أيضًا ذكريات حية؛ ظلت تطاردني لأعوام؛ ماضيه، قصته العجيبة، ميراثه من قريته، ملابسه، كتبه، وحتى أحلامه... وضعني وسط كل هذا واختفى.

- هل كنت تحبينه؟

- نعم أحببته، لم ألتقِ به إلا مرات قليلة؛ لكن الكتابة له جعلتني أتعلق به... ما فعله معي جعلني أحمله في قلبي حتى وهو ميت.

- أفهم شعورك هذا جيدًا... أنا أيضًا كان لي حبيبة منذ ما يقرب من سبع سنوات، لم ألتقِ بها مرة واحدة، لكن ظل حبها بداخلي أعوامًا طويلة بعد الفراق الذي أجبرتني الظروف على أن أفرضه على كلينا، هي حبي الأكبر والأجمل... في كل الأحوال الحياة تُنسينا بشكل ما.

- نعم هي دائمًا ما تفعل هذا... تُنسينا بشكل ما.

صمتُ قليلًا ثم قلت له:

- هذه حكايتي باختصار... ما رأيك بها وبي؟

- كما قلت لكِ من قبل... جثة الماضي لا تعنيني في شيء.

- وبالنسبة لوجدان؟

- دعي هذا الأمر لي... أنا سأتحدث معها عن قريب.

طلب قهوة مرة أخرى، وسألني ماذا أريد، فقلت له: "شاي"، فابتسم وقال:

- تُحبين الشاي مثل زهرة.

- وهل تشرب الزهور الشاي؟ وأي نوع من الأزهار هذه التي تُشبهني بها؟

- سأُخبركِ عنها يومًا ما، لكن ليس الآن.

- هل أشبه في نظرك زنبقة أم زهرة لوتس؟ وردة أم أقحوانة؟... الحقيقة يحيرني كثيرًا تشبيهك لي بالزهور، فالزهور تصلح للفرح وللحزن، للصحة وللمرض وللموت... أي الزهور أنا في نظرك؟

ابتسم ولم يرد بشيء، مما زاد من حيرتي وغرقت أكثر في هذه الحيرة، هل أشبه زهرة لأن الزهور تقف عاجزة أمام قاتليها، يقطفونها دون مقاومة منها، ليست طيرًا فتطير بعيدًا، وليست حيوان يمكنه الركض، هل لأني وديعة ولا أستطيع الهروب أو الدفاع يُشبهني بزهرة؟ لكن لي أشواك يمكنني أن أستخدمها إذا اقتضى الأمر... أخرجني من هجوم عقلي المباغت عليّ بقوله:

- هل تودين أن تعرفي شيئًا ما عني؟

- قل لي ما تريدني أن أعرفه عنك.

- أنا لا أحب أن أتحدث كثيرًا عن الماضي أو عن المستقبل، الحاضر هو كل ما يهمني... وكل ما أُريدكِ أن تعرفينه هو أنكِ أصبحتِ شيئًا هامًا في حياتي، وأُريدكِ معي باستمرار.

- وهذا يكفيني وزيادة.

أخرج من الجاكيت الذي يرتديه موبايل صغير الحجم، ولاحظتُ أن موبايله موضوع بجواره على المنضدة، بدا أنه يحمل اثنان... نظرتُ إليه وهو يكتب شيء ما على الموبايل الصغير ذاك؛ ثم سمعتُ صوت رسالة تأتيني على موبايلي، فأخرجته من حقيبة يدي، وقد كانت رسالة من الرقم المجهول يقول فيها (وأنتِ تكفيني وزيادة)... حبست أنفاسي

وأنا أنظر لابتسامة شفتيه وعينيه، إذًا كان هو صاحب الرقم المجهول الذي يُرسل لي تلك الرسائل الجميلة، كان يُحبني من قبل أن أعرف... لم أستطع أن أقول شيء وأنا في قلب هذه اللحظة الساحرة التي كنت أحياها.

بعد ذلك اللقاء بدأت ألاحظ تغيرًا في الطريقة التي تتعامل بها وجدان معي؛ تصمت كثيرًا، وعلى غير عادتها تتجنب الحديث معي... آلمني هذا، ولم أكن أعرف ماذا أفعل؛ عرفت منه أنه أخبرها بالموضوع وبما يريد لكنها لم تُعَقب؛ لم تعترض ولم توافق؛ فقط التزمت الصمت والتجاهل؛ كان هذا مؤلمًا على كلينا، لكنه لم يكن عائقًا لعلاقتنا في أن تستمر.

في المكتب كان يُشرف على عملي ولوحاتي بشكل خاص، يُعطيني من خبرته ما لم يعطه للآخرين من حولي، ويُحدثني عن عشقه للفن المعماري، ويُحضر لي كتبًا عنه وعن المهدنس العبقري "حسن فتحي"، شيخ المعمارين كما كان يحب أن يُسميه، أعطاني يومًا كتاب "عمارة الفقراء" وطلب مني أن أقرأه... حديثه عن العمارة كان يزيدني حبًا فيها وفيه.

اعتدتُ على رؤيته كل يوم، والاستمتاع بسحر نظراته، وجمال صوته، الذي أصبح مصدر سعادة لقلبي... وكان اليوم الذي يتأخر فيه في الحضور إلى المكتب أشعر بالضيق، وأظل في ترقب منتظرة ظهوره، وبمجرد أن يأتي أشعر وكأن الشمس قد جاءت معه، يُصبح وقتها كل شيء لامع ومضيء، حتى خطوط اللوحات تتراقص سعيدة.

تعددت لقائاتنا وتوطد الحب فيما بيننا... استبدلتُ صورة تاج التي كانت بجوار السرير بصورته، وسجلت الرقم المجهول على الموبايل تحت اسم "حبيبي"، أخيرًا أصبح لي حبيب يمكنني أن أراه وأتحدث إليه وأشم رائحة عطره.

أخذني للأوبرا، المسرح، السينما، المعارض، المتاحف والمطاعم؛ تعددت سهراتنا، وتعددت معها الفساتين والأحذية التي كنت أشتريها، وأصبحت حياتي تمتلئ بالفرح والألوان... تعددت أيضًا الهدايا الجميلة التي كان يُحضرها لي مع كل لقاء؛ ساعة أنيقة، أسورة ثمينة، قلادة تركته يُحيط بها عنقي ويلمس بيديه رقبتي.

أخذني ذات مساء لمكان ساحر (Chocolate House)، كانت ليلة بطعم الشيكولاته، وفيها قال لي أحبك لأول مرة، قالها بالأسبانية (te amo)، أنا أعرف أنه نصف مصري، والدته أسبانية، لكني لم أكن أعرف معنى الكلمة التي قالها لي... ابتسمتُ له وعلقت الكلمة في أذنيّ، وعندما عدتُ للمنزل، بحثت عنها في الانترنت وعرفتها،

وفي اليوم التالي تمنيت أن أقول له بالأسبانية وأنا أحبك كثيرًا (te amo mucho)، لكني عندما وقفت أمامه لأقولها، خرجت مني على هيئة صباح الخير بالأسبانية (Buenos días).

سألته في إحدى الأيام، وأنا أغادر المكتب بعد يوم عمل طويل ومرهق:

- منذ متى وأنت تحبني؟

- من قبل أن أراكِ.

شعرتُ بأنه يبالغ في رده هذا، فالناس لا تحب بعضها البعض قبل أن تلتقي، لكني اكتفيتُ بالرد الغامض، ولم أقل شيئًا.

كنت أنا ووجدان نتحاشى الحديث في هذا الموضوع، إلى أن جاء اليوم الذي تواجهنا فيه؛ قالت لي أنها لا تعترض على زواجي من أبيها، هو له كل الحق في أن يُحب ويتزوج بمَن يشاء، لكنها تشعر بأن هذا كسر شيء ما في حائط صداقتنا؛ أحدث شرخًا لا تعتقد أنه يمكن ترميمه... كنت في المقابل أشعر بهذا الشرخ، وليس أمامي غير أن أتعامل معه، ولا أحاول حتى مجرد ترميمه.

وفي أحد الأيام عقد اجتماع طاريء للجميع في المكتب، ولم تكن وجدان قد حضرت في ذلك اليوم، الحقيقة أنها تتغيب كثيرًا ولا أحد يقول لها شيئًا، فهي بنت صاحب المكتب... في ذلك اليوم أعلن للجميع خبر ارتباطنا وزواجنا الوشيك، دون حتى أن يخبرني أنه سيفعل هذا ويُصرح بهذا الإعلان للجميع، ربما جعلها لي مفاجأة، لكني وددتُ لو تمت باتفاق مسبق بيننا... وبكلماتٍ قليلة مختصرة أعلن الخبر:

- سأسافر الشهر المقبل لمكتبنا في مدريد، وبعد عودتي سيكون هناك حفل لزواجي أنا وفراق.

فرح الجميع أو أبدوا ذلك، وأخذوا يقولون عبارات التهنئة له ولي... والتزمت أنا الصمت ولم أقل شيئًا؛ تركتُ كل شيء للأيام التي قالت كلمتها.

في نفس يوم إعلانه للخبر أخذني للعشاء في مطعم عائم على سطح النيل، وأخبرني أنه انتهى من بناء طابق جديد في الفيلا، سيكون المكان الذي سنعيش فيه بعد الزواج:

- ألن يضايق هذا وجدان؟

- لا لقد تحدثت معها، وهي ليست لديها أية مشكلة في هذا، ثم أن وجدان ستتزوج في خلال أشهر قليلة، وتذهب لتعيش مع زوجها.

- خبر جديد من نوعه.

- نعم، وجدان لا تريد أن تقوم بإعلانه الآن... المهم استعدي، فمن الغد سنبدأ في اختيار أثاث منزلنا الجديد، والنجف والتحف واللوحات وكل هذه الأشياء.

- وماذا عني، ماذا يجب عليّ أن أُحضر في أثاث منزلنا هذا؟

- أحضري فقط فراق.

رفض أن أُشارك ماديًا في تجهيزات بيتنا الجديد، وقال لي إن مشاركتي بالرأي هي كل ما يريد... أخذني لأرقى الأماكن التي تبيع كل ما يلزم بيت عصري وجميل، واخترت كل ما أحببت، كانت أيام مرهقة ولكن سعيدة... وفي إحدى أيامي معه داخل مقهى أنيق، طلبت شاي وتذكرت تشبيهه لي بأني "أحب الشاي مثل زهرة"، وقد كان فضولي مازال قائمًا لكي أعرف أي زهرة هذه، فسألته مرة أخرى السؤال القديم الذي لم يُجب عليه من قبل:

- بمناسبة أني أحب الشاي مثل زهرة.

عند قولي هذا لاحظتُ اندهاشه الشديد، وكأنه للحظة نسيّ أنه يُشبهني كثيرًا بزهرة:

- أي زهرة تحب أن أكون؟ زهرة أوركيدا أم أقحوان أم نرجس أم ماذا؟

– لستِ أوركيد لأنه ليس بكِ غرابته... ولستِ أقحوانة، ينقصكِ بساطتها... كذلك أنتِ لستِ مغرورة أو أنانية مثل النرجس... أنتِ ياسمينة.

أخيرًا عرفتُ أي زهرة أنا في نظره، وهو ينطق كلمة ياسمينة شممتُ عطرها ورأيتُ في ابتسامته بياضها الناصع... ثم ضحك؛ فاحترتُ بأي لغة يضحك، بأي سحر ينظر؟

كاد تجهيز البيت أن ينتهي، عندما حان موعد سفره إلى مدريد، ذهبت معه إلى المطار، وقبل أن يدخل صالة المغادَرة، أمسك يدي اليمنى وخط بإصبعه على باطن كفي الحرف الأول من اسمه، ثم رسم قلبًا حوله، وترك يدي فضممتها بشدة وقلبي يكاد أن يقفز من مكانه، كان هذا وداعه لي دون كلمة، ثم اختفى من أمامي وسط زحمة المسافرين، وعدتُ أنا بيد تحمل قلبًا ينبض بالحب.

ظل يقوم بالاتصال بي من مدريد ثلاث مرات في اليوم؛ أستيقظ على صباح الخير منه، ويسألني عن أخباري في الظهيرة، ويحكي معي حوالي نصف ساعة قبل أن أنام... ولم أكن أدري من أين يأتي بكل هذا السحر حتى وهو على البُعد... لمدة عشرة أيام كاملة، ونحن على هذه الحالة الشاعرية الجميلة، التي زادتنا قربًا على قرب، فما أجمل أحاديث الحب عبر القارات.

عشقتُ صوته، كان جميلًا من خلال سماعة الموبايل، كما هو جميل في الواقع، وكانت الكلمات تصلني وكأنها ألحان عذبه، ألحان وردية، وكنت أتسائل: هل للصوت لون؟

****

9

استيقظتُ اليوم على ألم شديد في أحد ضروسي، ضرس في الناحية اليمنى من الفم، أزلت غطاء من فوق أحد المرايا في البيت، ونظرت أريد رؤية هذا الضرس؛ لكن السحابة كانت هي كل ما رأيت، وقد أصبحَت اليوم قُرمزية اللون، تُرى هل هذا هو لون الألم للوجوه التي هي على شكل سُحب؟... في المكتب أبدت رحاب ملاحظتها، وقالت لي

أن خدي من ناحية اليمين متورم؛ وتعجبت لماذا حضرت للعمل وأنا بهذه الحالة... لم أدرِ بماذا أُجيبها، فكيف لي أن أعرف أن لديّ تورم في وجهي وأنا لا أرى منه شيئًا.

في المساء كنتُ في عيادة طبيب الأسنان، وكانت المضادات الحيوية في انتظاري، ثم حسب خطة العلاج سيتم حشو الضرس الذي يعاني من التسوس... وكل يوم أسأل رحاب عن حال التورم في وجهي حتى أعرف لأي مدى يبدو شكل وجهي الذي لا أراه.

في إحدى الليالي وقفت أمام المرآة وأنا أسأل نفسي: "تُرى هل تتأثر هذه السحابة مثلما تتأثر بشرة الوجه؟" حاولت الضغط على وجهي بأصابعي فلم ألاحظ أي تغيير على السحابة، صفعت وجهي فظلت على حالها، ثم تماديت فجرحت السحابة عند مكان الذقن جُرحًا طفيفًا؛ ورأيتُ في المرآة أنها بدأت تُمطر دمًا.

بسرعة أوقفت نزيف السحابة، ووضعت لاصقًا طبيًا على مكان الجرح، وبدت السحابة جريحة ومنكسرة بهذا الشكل الذي أحدثته فيها، ثم استلقيت على السرير وأنا أفكر من جديد في حالتي... هل ما أراه في المرآة هو رؤية حقيقية أم مستوى آخر من الرؤية؟ ربما أصبحَت لي قدرات خاصة لرؤية ما لا يمكن للآخرين رؤيته؛ وها أنذا أبدأ بنفسي، بوجهي... أم هل تم اختطاف وجهي من قِبل قوة مجهولة واستبدلوه بهذه السحابة؟ ربما وجهي يهيم الآن في عوالم خارجية، أو يتصدر رأس كائن فضائي ذو جناحين... أخذت الهلاوس الفكرية تتلاعب برأسي، إلى أن اختطفني النوم منها.

لا بد من وجود حل لهذه المشكلة التي أغرق فيها وإلا أصابني الجنون، لذا قررت أخذ رأي أستاذ محمد إبراهيم؛ ذهبتُ إليه في المكتبة، وحكيتُ له عما أراه في المرآة عندما أنظر لوجهي، أخبرته عن الطبيبة النفسية التي ذهبت إليها وأني رفضتُ أن آخذ الأدوية التي أعطتها لي... قلتُ له كل ما أشعر به من ألم وحيرة وتخبط... استمع إليّ حتى أنهيتُ كل ما أريد قوله، ثم بدت كلماته مطمأنة، تحمل الأمل في وجود حل ما في مكان ما:

– لا تخافي يا شروق، كما أن لكل داء دواء فإن لكل مشكلة حل، وأنا أؤيد قرارك في عدم أخذ أدوية؛ فلا أعتقد أنها حالة تحتاج لدواء، وأيضًا أنا لست من أنصار أخذ الدواء غير للضرورة القصوى.

صمت قليلًا وهو يفكر بعمق، ويزن في رأسه حجم هذا المشكلة الغريبة من نوعها، ثم أضاف:

- لماذا لا تجربين علم النفس؟
- وهل هناك فرق بين الطب النفسي وعلم النفس؟
- طبعًا هناك فرق... الطب النفسي هو فرع من فروع الطب التي تهتم بفهم وتقييم وتشخيص وعلاج الاضطرابات العقلية، وتعتمد علاجاتهم في المقام الأول على الدواء... أما علم النفس فهو الدراسة العلمية للعقل البشري والسلوك مثل كيف نفكر ونشعر ونتفاعل ونتصرف مع الآخرين، ويهتم علم النفس بجوانب السلوك والأفكار والمشاعر والدوافع الكامنة وراء كل هذا.
- أعتقد أن علم النفس هو ما قد يصلح لحالتي هذه، هل تعرف أحدًا في هذا المجال؟ أو أحدًا قد تم علاجه عن طريق علم النفس؟
- ابن أختي كان يذهب لأخصائي نفسي منذ عامين، وتحسنت حالته كثيرًا.
- كم عمر ابن أختك؟ ومما كان يشكو؟ إذا لم يكن هناك تطفلًا لأن أعرف.
- ابن أختي شاب وسيم ويعمل في وظيفة مرموقة، لكنه يخاف من أن يترقى في عمله حتى لا يضطر للتعامل مع عدد أكبر من الناس، لديه ما يُسمَى بالرهاب الإجتماعي؛ مما يجعله يشعر بالخجل والاضطراب أمام الناس، ويصل به الأمر في بعض الأحيان لاحمرار الوجه وتعرق في اليدين وضربات قلب سريعة، لذا فقد أقنعته أنا وأختي بالذهاب لأخصائي نفسي؛ وبعد عدة جلسات رأينا الفرق واضحًا جدًا في مدى تحسن حالته... سأقوم بالاتصال به وأحصل منه على مكان العيادة ورقم التليفون.

هذه الكلمات جعلتني أتحمس أكثر لعلم النفس، وشعرتُ به أفضل لحالتي من الطب النفسي الذي يرتكز على الدواء في علاجاته... ابتعد أستاذ محمد قليلًا للحديث مع ابن أخته عبر الهاتف، ثم دخلت المكتبة فتاة هادئة الملامح، أخذت أنظر إليها وأحاول أن أتذكر ملامح وجهي الذي أكاد أن أنساه، ظلت تتفقد الكتب لعدة دقائق ثم اختارت

دفتر لتلوين الرسومات وعلبة ألوان، ولم يكن سامح بالمكتبة، لذا فقد قمتُ من مكاني وأديت دوري القديم، وبعت لها الدفتر وعلبة الألوان.

بعد أن أنهى أستاذ محمد حديثه التليفوني مع ابن أخته، اقترب مني، وأعطاني ورقة كتب عليها اسم الأخصائي النفسي وعنوان العيادة ورقم التليفون؛ وطلب مني أن أطمأنه على سير الأمور، وأحضر إليه في أي وقت أحتاج إليه... نظرت للاسم المكتوب على الورقة (دكتور يوسف) وأعجبني كثيرًا اسمه، فربما استطاع أن يُفسر لي أحلامي الغريبة التي أراها... شكرت أستاذ محمد بشدة، وقبل أن أخرج من المكتبة استوقفني، ثم بحث بين الكتب وأخرج من بينها كتاب أعطاه لي بعنوان (دع القلق وابدأ الحياة)، نظرت لاسم المؤلف (ديل كارنيجي)... شكرته على الكتاب وعلى كل شيء وذهبت.

في الطريق تصفحت الكتاب ووقعت عينايّ على جملة هي بمثابة مهدئ سريع المفعول (عش في حدود يومك ولا تأسى على ما فاتك ولا تعبر جسرًا إلا بعد الوصول إليه).

قمتُ بالاتصال بعيادة الأخصائي النفسي، وتم تحديد ميعاد لي؛ الخامسة مساءً في اليوم التالي، لذا وجب عليّ أن أستعد لهذا اللقاء النفسي، قمت بالاتصال بالأستاذ ربيع، وأخبرته بأني أريد أجازة لليومين التاليين ؛فسألني عن بعض النقاط والتقارير التي أعمل عليها، فأخبرته بأني سأنتهي منها الليلة وأرسلها له... فتحت اللابتوب وجلست أعمل حتى ساعة متأخرة من الليل إلى أن انتهيت من عمل كل ما هو مطلوب مني، وأرسلته للأستاذ ربيع بالايميل، وأرسلتُ له إيميل آخر بطلب الأجازة.

في اليوم التالي استيقظتُ من النوم متأخرة، أزحتُ غطاء المرآة التي هي في حجرة النوم، وألقيتُ تحية الصباح على السحابة، ربما إذا تصالحتُ معها تُغادرني، وتُعيد لي وجهي الذي سلبته.

في حوالي الرابعة مساءً خرجت من البيت، وفي الطابق الثاني رأيتُ سامح وهو يصعد السلم، بدا وكأنه عائدًا من الكلية، يُعلق حقيبة جلدية سوداء اللون على كتفه ويرسم ابتسامة على وجهه، اتسعت عندما رآني، وتوقف مكانه عن الصعود وهو يتابعني بعينيه؛ واصلتُ أنا هبوطي لدرجات السلم واجتزته وأنا أقول له:

- كيف حالك يا سامح، وما هي أخبار الدراسة والامتحانات؟

سمعته وهو يرد عليّ وأنا أواصل نزولي درجات السلم.

- الحمد لله تمام... لو سمحتِ بشمهندسة شروق أريد أن أسأل حضرتك سؤال.

توقفت والتفت إليه وأنا أقول:

- بسرعة يا سامح، فلديّ موعد هام، ولا أُريد أن أتأخر.

- آسف... يمكنني أن أؤجل سؤالي ليوم آخر حتى لا تتأخري عن موعدكِ.

- أوك... سلام.

أتعمد في كل مرة أقابل فيها سامح أن أعامله بجفاء... هو طفل بالنسبة لي، لكنه لا يريد أن يفهم هذا.

في الخامسة تمامًا كنت أقف على باب عيادة الأخصائي النفسي... على الباب قرأتُ الاسم كاملًا، وبالداخل انتظرتُ حوالي عشرين دقيقة، لم يكن بالعيادة أحد غيري، ولم تكن العيادة بفخامة عيادة الطبيبة النفسية التي ذهبت لها من قبل، لكنها هادئة وبسيطة، بها أصيص به زرع أخضر أضفى حياة وروح على المكان، والممرض صغير السن، بشوش الوجه، كان لاندهاشي يقرأ في كتاب، هذا المنظر الذي نفتقده كثيرًا من حولنا لأشخاص يقرأون الكتب في كل وقت يسمح لهم عملهم بهذا.

بعد قليل من الانتظار، خرج رجل متوسط العمر من مكتب الأخصائي النفسي، ودخلت أنا... ووجدتُ نفسي أمامه؛ طويل القامة، رياضي الجسم، قمحي اللون، بشوش الوجه، يطل ذكاء واضح من عينيه، يرتدي بدلة كاملة زرقاء اللون، ورابطة عنق جميلة، ويضع نظارات طبية على عينيه، يمكن أن أختصر وصفه في كلمتين فقط، وسيم وأنيق... قام من مكانه بمجرد أن دخلت المكتب وصافحني وكأنه يعرفني من قبل... شعرتُ بارتياح شديد بمجرد أن نظرت في وجهه، وزاد من ارتياحي ابتسامته التي شجعتني كي أبدأ الكلام دون حتى أن يُبادر بسؤالي:

- أرجو يا دكتور ألا تشعر بالغرابة من حالتي هذه التي سأحكيها لك، فأنا لا أعتقد أنك قد سمعت بمثلها من قبل، هو شيء بعيد كل البعد عن العقل والمنطق... أولًا اسمي فراق.

- اسم مميز؛ أول مرة أسمع هذا الاسم.

- أراه اسم غريب أكثر منه مميز... وأعتقد أن سبب مشكلتي هو اسمي.

- وما هي مشكلتكِ من وجهة نظركِ أو كما ترينها؟

- منذ ما يقرب من شهرين، وأنا لا أستطيع أن أرى وجهي في المرآة؛ اختفى وظهرت مكانه سحابة تتلون حسب الحالة المزاجية التي أكون عليها.

ظهر على وجهه تأثير هذا الذي سمعه مني؛ خليط من الدهشة وربما عدم التصديق، ثم سألني:

- كم عمركِ يا فراق؟ وهل تعملين؟

- عمري 27 عام، وأنا مهندسة عمارة، لكني لا أعمل في مجال تخصصي حاليًا.

- أولًا، احكي لي عن طفولتكِ وحياتكِ بشكل عام.

- أنا عشت حياتي حتى أصبحت في حوالي العشرين من عمري في المقابر.

دهشة أخرى ظهرت على وجهه، فهو بالتأكيد لم يتحدث مع شخص عاش في المقابر من قبل.

- لماذا كنتِ تعيشين في المقابر؟

- لأنه المكان الذي أعطته لي الحياة.

حكيتُ له عن طفولت،ي وعن أبي، وعن حياتي في المقابر حتى تركتها، حكيتُ له أيضًا عن تاج والخطاب الذي تركه لي وأخبرني فيه أنه يحبني، عن موته المفاجئ ومساعدته لي حتى وهو ميت... عن اسمي الذي ظل يواصل خطته في أن يجعلني أفترق عن كل مَن يحبونني؛ أمي وأبي وتاج.

ظل يسمعني أحكي الحكاية دون أن يقطع كلامي، يهز رأسه مرة ويزم شفتيه مرات أخرى، وعندما انتهيت من الكلام قال لي:

- لو كان باستطاعتكِ تغيير شيئًا من حياتكِ الماضية، ما الذي تتمنين تغييره؟

- اسمي وحياتي في المقابر، بالأخص اسمي الغريب؟

- لماذا تضعين في رأسك هذا الاعتقاد يا فراق؟ اسمكِ مميَز وليس (غريب)... هل كنتِ تُفضلين مثلًا أن تكوني إيمان أو هدى أو سلوى أو أمل؛ هناك الآلاف وربما الملايين يحملون هذه الأسماء وغيرها الكثير المتشابه... أكملي الحكاية يا فراق، أُريد أن أعرف ماذا حدث بعد أن أكملتِ تعليمكِ.

- في الكلية كان لي صديقة مقربة اسمها "وجدان"، والدتها متوفاة منذ كانت صغيرة، ووالدها لديه مكتب هندسي... بعد تخرجنا عملتُ أنا وهي في هذا المكتب... ثم أُعجب بي والدها وأراد الزواج مني؛ ترددتُ في البداية، لكني وجدتُ نفسي أنجذب ناحيته، وناحية هذه الحياة الجديدة التي لم أكن حتى أحلم بها يومًا؛ لكن هذه الحياة لم تأتِ مطلقًا.

- لماذا؟

- لأنه ببساطة مات... قبل أن يُعلن ارتباطنا رسميًا مات... بعدها كرهتُ اسمي بشدة، شعرتُ أنه سبب كل هذا الفراق الذي يلاحقني كلما تقربت من أحد أو تقرب مني أحد... أصبحتُ لا أحتمل مجرد أن يناديني أحد ويقول "فراق"؛ لذا فقد اتخذتُ قراري بأن أقوم بتغيير هذا الاسم الذي لا يأتيني من وراءه غير الفراق، سألتُ عن إجراءات تغيير الاسم، لكني وجدتها إجراءات طويلة ومعقدة؛ فأقلعتُ عن الفكرة وقررتُ أن أقوم

بتغييره في حياتي وليس في أوراقي... فاضلت بين الأسماء المختلفة وقررت أن أكون (شروق)... أخبرت معظم مَن أعرفهم بالاسم الجديد وأصبحتُ أتعامل به فقط... ونادرًا ما أسمع حاليًا اسمي القديم "فراق".

– جميل شروق؛ وأيضًا جميل فراق، لا أُريدكِ أن تكرهي فراق مطلقًا، وانزعي من تفكيرك فكرة أن مَن ترتبطين بهم يموتون بسبب اسمك، لكل إنسان عمره المعروف قبل حتى أن يُولد، اسمكِ لا يتسبب في موت أحد.

صمتَ قليلًا ليجعلني أعي معنى ما قال ثم أضاف:

– أخبريني متى بالضبط بدأت المشكلة؟ وأقصد بمتى أي بعد حدوث ماذا في حياتك؟

– لم يحدث شيئًا محددًا بعدها ظهرت السحابة مكان وجهي، لكني تلك الليلة رأيتُ كابوسًا رهيبًا، استيقظتُ بعده لأجد أني فقدتُ وجهي، ولم أستطع رؤيته بعد تلك الليلة حتى الآن.

– احكي لي هذا الكابوس.

حكيتُ له الكابوس بكل تفاصيله التي مازلتُ أتذكرها جيدًا، واستمع إليّ هو في تركيز تام؛ ثم قال لي:

– بالطبع ليس من المنطق أن يتسبب كابوس في هذه الحالة التي تعانين منها... علاج الحالات النفسية يا بشمهندسة شروق له طريقين: دوائي أو كلامي؛ وأنا أتبع الطريق الكلامي أو المعروف بالجلسات النفسية، كل جلسة ستكون في حدود ساعة، أُعطيكِ بعدها تدريب تقومين به، ثم تعودي مرة أخرى بعد أسبوع لنتابع الحوار، وأُعطيكِ مزيد من التدريبات العملية... هل توافقين على الاستمرار معي بهذه الطريق؟

– نعم أوافق، أنا لا أُحب طريق الدواء ولا أنوي السير فيه مطلقًا... ذهبتُ لطبيبة نفسية بعد أن ظهرت هذه السحابة بوقت قصير، ورفضتُ أن آخذ الأدوية التي أعطتها لي؛ ولذا قررتُ أن ألجأ لعلم النفس.

– قرار سليم وشجاع، فليس كل الناس لديهم القوة على اتخاذ هذه الخطوة وطلب المساعدة الطبية لحالتهم النفسية... والآن سأعطيكِ التدريب الأول، وهو أن تبذلي مجهود بدني أكبر من المعتاد، مثلًا أن تقومي بالمشي لعدة ساعات، أو الجري، أو حتى الرقص أمام المرآة... ستتخلصين بعد هذا المجهود من طاقة سلبية

كبيرة، ثم اجلسي واكتبي كل مشاعركِ، وكل ما مر بكِ في يومكِ؛ واقرأيه فيما بعد، وستجدين أن هناك الكثير الذي كنتِ ترينه مؤلم وضخم، بأنه لم يكن أبدًا بهذا القدر الذي كنتِ تتصورينه... وإذا كنتِ تبذلين الكثير من المجهود النفسي والعقلي يمكننا أن نقلل منهما ببذل مجهود بدني أكبر... هل يصلكِ المعنى الذي أريد أن أشرحه لكِ؟

- نعم، أفهم تمامًا ما تريد قوله.

- ممتاز جدًا... إذًا هذا هو أول تدريب ستقومين به، وأراكِ بعد أسبوع في مثل هذا اليوم وهذا الوقت، لنتحدث في جلسة أخرى.

شكرته، وخرجت من العيادة وأنا أشعر ببعض الارتياح، وبأمل في عودة ملامح وجهي مرة أخرى.

لقائي هذا مع الأخصائي النفسي جعلني أتصالح مع مرايا البيت؛ فأزلت الأغطية التي كنت أضعها عليها... وفي هذه الليلة، حلمتُ بأني أقف أمام إحدى هذه المرايا، وقد ظهر للسحابة عينين، كنتُ أدقق النظر في هاتين العينين، ولم يكن يظهر فيهما بؤبؤ العين، كان هناك بحرٌ يجري.

****

10

أخبرت كل مَن أعرف بخبر زواجي من والد وجدان بعد عدة أسابيع، بدأت بدكتور رضا الذي فرح كثيرًا لكن كان له بعض التحفظ على فارق العمر بيننا... والأستاذ محمد هنأني وقال أنه يثق في إختياراتي، أما عمّة تاج فقد بكت عند سماعها الخبر، وقالت لي أنها كانت تتمنى أن تراني عروس لتاج، ثم مسحت دموعها سريعًا وقبلتني مهنئة... الأستاذ

مينا كان أكثر من أسعده هذا الخبر وقال لي أنه سيبدأ في رسم بعض اللوحات التي ستكون هدية زواجي لمنزلي الجديد.

الأصعب على نفسي كان رد فعل سامح الذي ملأت الدموع عينيه عندما أخبرته وهو ينتظرني أمام المبنى في أحد الأيام، وكأنني ألقيت في وجهه قنبلة وليس خبرًا سعيدًا، نظر لي دون كلمة ثم تركني وذهب من أمامي كعاصفة... توقف بعدها عن انتظاري أمام المبنى كما كان يفعل... أعرف أن الخبر كسر جدران قلبه الزجاجية وتناثرت شظاياها لتنغرس في روحه.

في اليوم الحادي عشر من سفره لم أتلقَ مكالمته الصباحية ككل يوم، فقمتُ بالاتصال به، لكن لم يأتني أي رد... وظللت أحاول الاتصال به حتى ما بعد الظهر لكن دون فائدة، ملأني القلق، فقمتُ بالاتصال بوجدان لأسألها عنه، فوجدتها تبكي وفي حالة انهيار؛ تضع الكلمات بجوار بعضها البعض وكأنها لا تعرف كيف تصيغها:

- بابا حدثت له أزمة قلبية وهو في مدريد، أنا في المطار... بابا تعبان جدًا يا فراق.

- ماذا حدث بالضبط ومتى؟ ولماذا لم تخبريني عندما علمتِ؟... أرجوكِ يا وجدان أريد أن أتحدث معه.

- سأقوم بالاتصال بكِ عندما أصل وأعرف التفاصيل، أنا سأركب الطائرة الآن.

ثم أغلقت التليفون، وظللت أحاول الاتصال بها دون جدوى وأنا أضم بشدة يدي اليمنى التي رسم بها قلب بداخله أول حرف من اسمه، وأشعر بذلك القلب ينبض بشدة... أصابتني حالة من الذهول والألم، وتركتُ دموعي تنهمر دون أن أحاول إيقافها، كان يحدثني بالأمس ككل يوم، ماذا حدث إذًا؟

بعد أن فتحت وجدان التليفون، ظللت أُلح عليها باتصالاتي فترد مرة ولا ترد عشرات المرات، عرفت منها أن حالته خطيرة، وسيخضع لعملية قلب مفتوح؛ فملئني الخوف عليه، وأصابني الرعب من أن ينتزعوا حبي من قلبه أثناء هذه العملية التي لا أعرف كيف تتم.

كنت أقضي اليوم في قلق وخوف، والليل في رؤية كوابيس غريبة من نوعها، فكنت أرى وكأني في يوم مشمس جميل وفجأة تمتلأ السماء بالسحب، سحب سوداء كبيرة، ثم يبدأ المطر ينهمر منها على هيئة قطرات من الظلام، كلما سقطت على شيء أظلمته ومحت نور الشمس من عليه... وفي كابوس آخر رأيت سامح يقف أمامي ثم يضحك كإنفجار مفاجئ فيملأني صوته بالرعب... وفي كابوس آخر رأيت تاج وهو يُطفئ حريق اندلع في ملابسي.

أعدتُ قراءة كل الرسائل التي كان يرسلها لي على رقم التليفون الذي يخصصه لي وحدي، ومع كل رسالة تنهمر دموعي كنهرٍ جاري، كانت آخر رسائله قبل يومين من انقطاع كلماته وصوته عني، كتب لي فيها: (تأتين لي في الأحلام كليل مرصع بالنجوم... تأتين كقارب مليء بالهدايا والأمنيات ورائحة البحر).

ذهبتُ لشقة أستاذ مينا وأخبرته بالمحنة التي أمر بها، وبكيتُ كثيرًا وأنا أتكلم، حاول تهدئتي وقال لي:

- اشكري ربنا على كل شيء يا فراق، نحن أضعف وأجهل من أن نعلم أين هو الخير.

بعد عدة أيام رأيتُ حلمًا سيئًا؛ وكأني أحفر حفرة عميقة، ثم أقطع بسكين القلب الذي رسمه على راحة يدي اليمنى، وأضعه بالحفرة وهو ينزف دمًا... استيقظتُ متلاحقة الأنفاس، مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم مما رأيت في الحلم، ثم سمعتُ صوت غراب يأتيني من النافذة، وقفتُ أنظر إليه وقد كان يجرح بصوته سكون الليل ويُوقظ خوفي من نومه.

خلال أيام قليلة جائني الخبر الفاجعة، دخل في غيبوبة ثم مات... هكذا حدث كل شيء بسرعة، موت آخر كان في انتظاري، وكأن الفراق يأبى أن يتركني ويبتعد.

عند سماعي هذا الخبر الذي وقع على قلبي كصاعقة، أصابتني حالة من الذهول والصمت، حتى أني لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة، أو أذرف دمعة واحدة؛ فقط ضممت يدي اليمنى بشدة حتى انغرزت أظافري فيها وسال الدم منها، وأنا لا أشعر بهذا الألم الذي كان يُلهيني عنه ألم أكبر بالروح... هكذا فجأة تُغير الأيام اتجاهها فتتغير كل حياتنا؛ ونبتعد عن الطريق الذي كنا نسير فيه، لنجد أنفسنا في طُرق جديدة ومصائر مختلفة... ميت آخر أشيعه داخل قلبي، وتبقى لي ذكرياته.

ظل القلب الذي رسمه لي على يدي ينبض ألمًا في راحة يدي التي تنزف دمًا لا أريد أن أوقفه، وكنت فيما بعد كلما إزداد شوقي إليه تتسارع دقات هذا القلب في يدي.

حضر الجثمان من مدريد، ولم أترك وجدان في كل أيام العزاء، بكيته بحرقه وبكيت حالي معه... وبموته انتهت هذه الصفحة الجميلة من حياتي، وبقيّ لي آلامها وأحزانها وذكرياتها... بعدها بأسابيع قليلة أغلقت وجدان المكتب الهندسي، وسافرت لتستقر وتعمل في مدريد؛ وأصبحتُ بلا عمل، حتى علاقتي بها أصبحت سطحية، مجرد السؤال عن الأحوال عبر الإيميل؛ وكأن موته أزاح عن قلبها ثِقل زواجي من أبيها.

رحل هذا الحبيب الاستثنائي عن حياتي، وترك وراءه فراقان وثلاثة أشواق، فراق الحب وفراق السعادة؛ وشوق لابتسامته وعينيه وصوته... ترك لي أيضًا عدة أسطر من الحزن، وفصل كامل من الدموع.

وإذا حدث وسألني أحد وقتها عن البحر الذي نشأ فجأة في منتصف قلبي، سأكذب عليه وأقول إنه مجرد سراب ظهر من كثرة ما قرأت عن الصحاري؛ لن أقول الحقيقة أبدًا، لن أقول أنه نشأ من كل تلك الدموع التي سكبتها عينايّ.

ظللتُ لعدة أشهر في حداد على موته، ارتديتُ الأسود، ونقص وزني حوالي خمسة كيلو جرامات، وجدتُ المواساة من الجميع من حولي، وعاد سامح لينتظرني مرة أخرى أمام المبنى، وكأن الحاجز الذي كان يمنعه من الاقتراب مني قد تهدم، هو بالفعل تهدم ولم يعد له وجود... وقال لي يومًا وهو يسير بجواري حتى أجد تاكسي:

- لا تحزني بشدة هكذا، ستجدين يومًا الحب الذي يملأ حياتكِ، فقط انظري حولكِ.

لم أكن بحاجة لكي أنظر حولي، يكفيني أن أنظر بداخلي حتى أجد حبه مازال يملأ القلب، رغم اختفاءه هو من كل الأماكن.

قضيتُ أيامًا طويلة من الكآبة والضيق؛ شعرتُ بأني أحملُ عبئًا ثقيلًا فوق كاهلي... تذكرتُ كل فراق مر بي في حياتي وأكثرها إيلامًا، وهو فراق أبي وفراق تاج، حاولت أن أجد السبب الحقيقي لكل هذا الكَمْ من الفراق الذي يطاردني أينما ذهبت؛ وأرجعتُ جزءً كبيرًا منه لاسمي "فراق"؛ هذا الاسم الذي كلما اقتربتُ به من أحد يفارقني؛ لن أكذب

على نفسي بعد اليوم؛ لم يكن اسمي جميلًا أو حتى نذير خير لأي أحد يسمعه... لذا فقد اتخذتُ قراري بأن أقوم بتغيير اسمي.

ترى ما الاسم الجديد الذي يجب أن أُعطيه لنفسي؟ أحد أهم معايير اختيار اسمي الجديد هو أن يكون بعيدًا كل البعد عن أي فراق أو رحيل أو غروب؛ مجردًا من كل أنواع المعاناة والآلام والدموع... وبعد المفاضلة بين الأسماء العديدة اخترت اسم "شروق"؛ وهكذا نفضتُ الحزن والفراق عن قلبي، وبدأتُ أتعامل مع العالَم بروح جديدة؛ بشروق جديد.

سألت عن إجراءات تغيير اسمي في شهادة الميلاد وشهادة التخرج وكل الأوراق الرسمية، ووجدتُ أنها إجراءات طويلة ومعقدة؛ لذا فقد أقلعت عن تغييره في الأوراق، واكتفيتُ بتغييره في الواقع؛ أخبرت معظم الذين أعرفهم باسمي الجديد، وطلبت منهم أن يتعاملوا معي به؛ أنشأت لنفسي إيميل جديد بالاسم الجديد ومحوت إيميلي القديم؛ طلبت من الأستاذ "مينا" أن يرسم لي في لوحة اسمي (شروق)؛ الذي سأعتبره هويتي الجديدة، وقمتُ بتعليقها في الصالة... حاولت أن أتخلص من مطاردة "فراق" لي بكل الطرق التي استطعتها.

كل تلك الخسارات المتتالية والفراق الذي يعقب فراق جعلني لقمة سائغة في فم الحزن، كان يقربني درجة من الصمت ويبعدني درجة عن القوة، لذا أصبحت انطوائية أكثر، وهشة أكثر، ووجدت في الوحدة والبعد عن الناس الدواء الذي أريده لروحي المتعبة.

بعد أن انحسر الحزن قليلًا عن قلبي، بدأت في البحث عن عمل جديد؛ لكني لم أستطع أن أجد وظيفة مناسبة لمجال دراستي؛ كل ما وجدته في ذلك الوقت هو وظيفة في شركة أنظمة تشغيل؛ وكنت في حاجة للعمل كي أعود للحياة، فلا فائدة من الاستمرار في البكاء على الماضي الذي لن يعود... أخذت بعض الدورات التدريبية، واستطعت أن أعمل في هذا المجال المختلف عن مجالي، واستمرت الحياة؛ بعمل جديد، بأمل جديد، وباسم جديد قررت أن أُشرق به على أيامي الحزينة.

****

11

كان لديّ أسبوعًا بأكمله لأنتهي من تنفيذ التدريب الذي طلبه مني المعالج النفسي؛ لذا فقد أخذت يوم أجازة من العمل لتنفيذ هذا التدريب... وبدأت اليوم برياضة المشي، استيقظتُ مبكرة، وارتديتُ جينز أزرق وكوتشي أبيض، وخرجتُ للمشي؛ رأيتُ المدينة وهي تستيقظ من نوم ليلة طويلة، تنفض عنها سوادها وهدوءها، المباني تفتح نوافذها وكأنها تفتح عيونها، السماء تستبدل ملابس النوم السوداء وترتدي ثوبها الصباحي الأزرق الجميل، الشوارع تغسل وجوهها بنور الصباح، والأشجار تُمشط شعرها الأخضر الطويل وتنفض عنه ظُلمة الليل... العمال والموظفون في طريقهم للعمل، التلاميذ يهرولون لمدارسهم، والعربات المختلفة الأحجام والألوان تنقل الجميع من هنا وهناك... مشيتُ حوالي ساعتين، ثم عدتُ للسوق الذي يبعد عدة شوارع عن منزلي، اشتريتُ منه خضروات وفاكهة طازجة، وقفتُ في وسط السوق وكأني أقف وسط مهرجان من الألوان الحيّة، الألوان التي لها طعم، تُغذي العين قبل الجسم، وتُنعش الروح قبل العقل... ثم رجعتُ البيت بنشاط أكبر، وروح أكثر انفتاحًا على العالَم.

أعددتُ إفطارًا لذيذًا، تناولته بشهية كبيرة، ثم قرأتُ حوالي ساعتين في كتاب "دع القلق وإبدأ الحياة"، لم أكن يومًا على وفاق مع كتب التنمية البشرية، لكن هذا الكتاب رائع بكل معنى الكلمة... ثم أعددتُ صينية مكرونة بالخضروات وجبن الموزريلا الطازجة، وأخذتُ جزءًا منها أعطيته للأستاذ مينا.

هذا اليوم الذي بدأته برياضة المشي، منحني طاقة إيجابية كبيرة، وانفتاحًا على العالَم من حولي، والأهم من هذا انفتاحًا على العالَم المختبئ بداخلي... فبعد صلاة العصر جلستُ أدعو الله كثيرًا، فتحت له خزائن قلبي المنغلقة، وأخبرته بكل ما في نفسي، ما يُقلقني، ما أتمناه، وما أخافه؛ راحة كبيرة غمرتني وأنا أدعو وأواصل الدعاء.

في المساء قررت أن أستمر في بذل مجهود بدني أكبر مما بذلته في المشي في أول اليوم؛ لذا فقد ارتديتُ الفستان الأزرق، الوحيد الذي أحضره لي والد وجدان، فبعد أن نقص وزني بعد موته أصبح في إمكاني ارتدائه مرة أخرى، وأمام المرآة مشطتُ شعري، ووضعتُ مساحيق تجميل على السحابة التي هي وجهي الذي لا أراه، ثم قمتُ بفتح الراديو، وكانت هناك أغنية (عيون بهية) بصوت محمد العزبي العذب، وبدأت الرقص عليها، الرقص من الأشياء التي

تُعتبر فن ورياضة في نفس الوقت... لا أدري إن كان هذا الذي أفعله يُسمَى رقصًا أم لا، لكنه أخرج من داخلي شحنة كبيرة من القلق والتعب والإحباط، شعرتُ بعدها بصفاء ذهني ونشاط بدني... ولم تكن كل الحكاية عيون بهية، كانت كل الحكاية وجهي الذي تحول إلى سحابة.

بعد أن تعبت من الرقص جلست أكتب كل ما مر بي خلال اليوم، كل مشاعري تجاه مشكلتي وتجاه العالَم وما فيه، وعندما تحولت هذه المشاعر لكلمات ألقيتها على الأوراق، شعرتُ بها ضئيلة، وليست بنفس الثِقَل الذي كانت عليه عندما كانت تحتل عقلي وقلبي... كتبت أكثر فشعرت بتحرر أكثر، أخرجت كل ما أستطيع إخراجه وألقيت به للأوراق لتحمله نيابةً عني، أصبحتُ وكأني أخف وزنًا... تُرى كم جرامًا يضيفه القلق والألم والحزن لأوزاننا؟

كان يومًا مثمرًا بكل ما فعلته خلاله، لذا فقد قررت أن أُخصص يومًا كهذا في نهاية كل أسبوع، أقضيه متبعة هذا النظام (المشي + القراءة + الطعام + الدعاء + الرقص + الكتابة).

نمت بعد ذلك، فرأيتُ حُلمًا غريبًا؛ وكأني أقف أمام مرآة، وأنظر لوجهي الذي أصبحتُ أرى فيه العينين فقط، كنت سعيدة بظهور عينين للسحابة، وعندما دققت النظر أكثر لم تكن تلك العينين عيناىّ، عينيّ مَن إذًا؟ هل يُعقل أن تكونا عينيّ بهية؟ خرجت من الأغنية والتصقت بالسحابة، في الحلم أمسكتُ ورقة وكتبت عليها كلمة "شفتان"، وفي الحال ظهرت للسحابة شفتين غليظتين سوداوتين اللون، شهقت من الفزع، وكتبت مرة أخرى "شفتان رقيقتان مطليتان باللون الوردي"، وعلى الفور ظهرت الشفتين في السحابة بنفس الوصف الذي وصفته، وهكذا أخذتُ أملأ السحابة بأجمل الملامح، أنف دقيق، عينان زرقاوتان، حاجبان متساويان، خدود حمراء، رموش طويلة، جبين عريض... كنت كلما كتبت أحد الملامح على الورقة، يظهر في السحابة، إلى أن اكتملت كل ملامح وجهي الذي لم أكن أعرف في النهاية وجه مَن هذا؟

استيقظتُ من النوم مفزوعة من هذا الحلم الغريب، وذلك الوجه الذي كونت ملامحه من خيالي، أصابني الرعب من أن يتحول الحلم لحقيقة، ويصبح لي وجهًا غير وجهي؛ فجريت ناحية المرآة أنظر فيها، لكنه كان مجرد حلمًا، ولم يكن في وجهي أي ملامح، فقط سحابة صماء.

أحضرتُ دفترًا جديدًا له غلاف متعدد الألوان، وأطلقت عليه اسم (دفتر الأحلام)، وجلست أكتب به كل ما رأيت من أحلام منذ أن أصبح وجهي وجه سحابة، لابد وأن لهذه الأحلام دلالة ما أو تفسير ما... وقد يأتي يوم أستطيع فيه أن أربط كل هذه الأحلام معًا، لتصنع لي قصة متكاملة، أو ينبثق منها حل يساعدني في مشكلتي.

في اليوم التالي ذهبت للعمل بروح جديدة، قررت معها أن أُحب عملي أكثر مما أفعل، وطلبت من رحاب زميلتي في المكتب أن نخرج معًا في المساء للذهاب للسينما، كانت المرة الأولى التي أطلب منها شيئًا كهذا، لكنها وافقت على الفور.

رحاب مجنونة بالموضة والأزياء، على عكسي تمامًا... تعشق الألوان وتناسقها، وأضف لهذا أنها تحب التمثيل، وتخرج من قصة حب لتقع في أخرى، لدرجة أنني لا يمكن أن أتذكر أسماء كل مَن أحبتهم... قضيت معها أمسية جميلة، شاهدنا فيلمًا أجنبيًا جديدًا في السينما، وأكلنا أيس كريم، وشربنا عصير قصب منعش ولذيذ.

عدتُ للأخصائي النفسي بعد أسبوع، وسألني عن نتيجة التدريب الذي أعطاه لي في الجلسة السابقة، وكيف قمت بتنفيذه:

- بذلت مجهود بدني في المشي لعدة ساعات وفي الرقص، وكانت النتيجة مذهلة؛ فقد أصبحت بعد هذا اليوم بروح منفتحه أكثر على العالَم، وطاقة إيجابية كبيرة، حتى أني بدأت أحب عملي أكثر مما كنت، وذهبت مع زميلتي بالمكتب إلى السينما.

- نتيجة مبهرة... سعيد أنها تمت بهذه الطريقة... والآن أريد أن أعرف إذا كان قد حدث تغير في عاداتك بعد ظهور السحابة أم لا؟

- لم أفهم السؤال جيدًا.

- مثلاً هل تغيرت شهيتك للأكل، أو اختلفت عدد ساعات النوم، أو انتابتكِ نوبات قلق أو اكتئاب أو خوف؟

- لا، لم يحدث لي شيئًا من كل هذا، لكني أرى أحلامًا كثيرة وغريبة، لا أدري حتى إن كانت أحلامًا أم كوابيسًا، ولا أستطيع أن أجد لها تفسيرًا، وأنا لا أحب الجري وراء تفسير الأحلام لأنها متاهة.

- أتفق معكِ... هي متاهة بالفعل، أفضل شيء أن نترك الأحلام تُفسر نفسها إن كان لها تفسير... والآن أخبريني عن عدد المقربين لكِ في الحياة، ومَن فيهم الأقرب لكِ؟

- هم قليلون، لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة... لكن أقربهم لي هو عمو مينا جاري، هو رجل كبير في السن، لكنه رسام ماهر، رسم لي اسمي "شروق" في لوحة جميلة... كان تاج قد أوصاه عليّ قبل موته، ويعتبرني مثل ابنته.

- هل للأستاذ مينا أولاد؟

- ولد واحد، اسمه مايكل ويأتي لزيارته على فترات متباعدة، وأحيانًا يأتي هو وزوجته نيفين وابنهما شادي.

- أريدك يا فراق أن توسعي دائرتكِ الإجتماعية، اكتسبي عددًا أكبر من الناس وأدخليهم الدائرة... التدريب الثاني الذي أعطيه لكِ هو أن تعرفي من أستاذ مينا موعد حضور ابنه مايكل وأسرته لزيارته، واشتري لعبة بسيطة لشادي وبعض الحلوى، أو اصنعي بعض الحلوى بنفسك إذا كنتِ تجيدين صنع الحلوى، واذهبي لزيارتهم وتقديمها لهم، اقضي معهم أمسية، واكتسبي معارف جُدد، قومي بإضافتهم لرصيدك الاجتماعي.

- تدريب شيق، سأقوم بتنفيذه بإن الله تعالى.

- ممتاز... وبما أن أستاذ مينا رسام كما قلتِ لي، فاطلبي منه أن يرسمكِ، ليس ملامح الوجه فقط، بل يرسم ما يراه فيكِ، كيف أنتِ كما يراكِ... ربما يرسمكِ على هيئة فراشة أو نجمة أو وردة.

قاطعته قائلة:

- أو سحابة.

وضحكت، وضحك هو الآخر، ثم أكمل:

- والسحابة ستكون جميلة أيضًا.

سكَتَ قليلًا ثم قال لي:

- اعقدي صلح مع اسمك يا فراق، في المرة القادمة أريدكِ أن تقولي لي: أنا شروق وأنا أيضًا فراق، الاسمان أنا... أيضًا انفتحي على العالَم، اكتسبي صداقات جديدة، سافري، حبي إن استطعتِ ووجدتِ الحب المناسب الذي يليق بكِ.

خرجت من عند دكتور يوسف وأنا أشعر بارتياح شديد من لقائي الثاني معه، وعلقت آخر نصيحة له بعقلي وقلبي (حبي إن استطعتِ)... أنا أؤمن أن الحب هو أكبر مُنقذ في العالَم، يمكنه أن يُنقذنا من أعتى المخاطر... يجب أن أبحث عن الحب الذي يليق بي، ويمكنه أن يُنقذني، لكن أين أجده؟

في طريق عودتي، توقفتُ عند متجر كبير لألعاب الأطفال، واخترتُ منه ساعة جميلة متعددة الاستخدامات، سأُقدمها هدية لشادي حفيد الأستاذ مينا، والذي يبلغ من العمر حوالي ثماني سنوات... أعجبني أيضًا في المتجر صندوق جميل عبارة عن حصّالة على هيئة متاهة، يتم وضع الهديه بداخلها وعلى الطفل أن يقوم بحلّ المتاهة والوصول إلى القفل ليفتح الصندوق ويصل الى الهدية، أعجبتني فكرتها كثيرًا، فاشتريت ذات اللون الأزرق، ووضعت الساعة بداخلها... اشتريتُ أيضًا من المتجر بضع أقنعة من البلاستيك التي يرتديها الأطفال للعب، اشتريتُ أكثر من شكل راقت لي ملامحهم؛ وكنتُ فيما بعد أرتدي هذه الأقنعة في البيت كي أراها عندما أنظر للمرآة بدلًا من السحابة.

قبل أن أصل للمبنى الذي أسكن فيه، اشتريتُ بطاطا مشوية، وقبل أن أدخل شقتي، طرقتُ باب أستاذ مينا وأعطيته بعضًا منها، وسألته عن أحواله، وعرفت منه موعد زيارة مايكل وأسرته له في نهاية الأسبوع، وأخبرته أني سآتي لأُسلم عليهم عندما يحضرون.

حاولتُ أن أعمل بنصيحة الأخصائي النفسي وأشغل قلبي بحب يليق به، أردتُ أن أبحث عن حب جديد، لكن أين ومَن؟ الحب لا يأتي عندما نبحث عنه، الحب يأتينا فجأة دون ميعاد... هذه نصيحة تحتاج لقَدَر يتدخل فيها كي تتحقق، وما عليّ غير أن أنتظر حدوث هذا القَدَر.

في نهاية الأسبوع أعددتُ صينية بسبوسة بالقشطة، وذهبتُ بها لشقة الأستاذ مينا، وكان هناك ابنه مايكل وزوجته نيفين وابنهما شادي، أعطيت شادي الهدية التي فرح بها كثيرًا، وعانقني، وقبلني قُبلة جميلة، شعرتُ وكأنه طبعها على قلبي وليس على خدي، ثم انشغل عنا في حل اللغز لفتح الصندوق والوصول للهدية... شكرتني نيفين على الهدية، وأخذتني معها للمطبخ كي نُحضر الطعام؛ ها أنا ذا أُدخل في دائرتي الاجتماعية نيفين وابنها شادي وربما زوجها مايكل.

تناولتُ معهم طعام العشاء، وأكلنا بعدها البسبوسة بالقشطة التي أحضرتها، وتحدثنا في مواضيع متفرقة... كانت أمسية جميلة امتدت حتى منتصف الليل، عدتُ بعدها للمنزل وأنا سعيدة بهذه الحياة النابضة التي قطعت صمت يومي وغيرت ملامحه، ورأيتُ في هذه الليلة حُلمًا جديدًا من سلسلة الأحلام الغريبة التي أصبحتُ أراها هذه الأيام... رأيتُ وكأني أجلس فوق مائدة طويلة، تُنيرها شموع بألوان مختلفة؛ أبيض، أحمر، أخضر، أسود، وأصفر، كنت في الحلم أنا الضيف الوحيد على المائدة، وعليها خمسة أواني مغطاة، وكلما رفعتُ غطاءً تظهر لي محتويات الإناء والتي تتكون من كلمات مجسمة، أخذت أتناول هذه الكلمات وأضعها في فمي، أمضغها جيدًا فأشعر بطعمها، الإناء الذي كان به كلمات السعادة جاء طعمها حلوًا، والإناء الذي كان به كلمات الألم كانت مالحة، والإناء الذي كانت به كلمات الغضب كان طعمها حامضًا، والإناء الذي كانت به كلمات الرحيل كانت مريرة... وفي منتصف المائدة كان هناك إناء به كلمة واحدة من حرفين (حب)، تناولتها وقسمتها لحرفين، وضعت حرف الحاء أولًا في فمي، ثم الباء، وكان للحرفين معًا طعم الزبدة التي تذوب في الفم، وتُعطي أقصى درجات الشعور باللذة في تناول الطعام.

في اليوم التالي في العمل كانت بالمكتب مفاجأة في انتظاري، حيثُ وجدتُ رحاب قد خلعت الحجاب الذي كانت ترتديه منذ أن عرفتها، نظرتُ إليها باندهاش، تطل من عينيّ العديد من الأسئلة التي قطعتها كلها بقولها:

- لا تسألي.

- لن أسأل، سأنتظركِ حتى تحكي لي من تلقاء نفسكِ.

وبالفعل، بعد يومين وجدتها تُحضر كوبان كبيران من "الكابتشينو"، وضعت أحدهما أمامي وأمسكت بالآخر في يدها، وبدأت تشرب منه وتحكي لي دون أن أسأل:

- أنا ارتديت الحجاب منذ حوالي ثلاثة أعوام فقط، بعد أن مات أخي الوحيد، شعرتُ وقتها بهزة إيمانية قوية زعزعت بداخلي أشياءً كثيرةً، ودفعتني إلى أن أتقرب من الله بأي وسيلة كانت ظاهرية أم باطنية، وكان الحجاب هو الأسهل والأسرع، فارتديته حسب اعتقادي وقتها أنه وسيلة للتقرب من الله... لكن مع الأيام، بدأت قناعتي به تخفت، إلى أن تلاشت منذ فترة ليست بالقصيرة، وبالرغم من هذا لم يكن لديّ الشجاعة لخلعه، إلى أن وقفت وقفة صادقة مع نفسي، وأجبرتها على أن تحترم عقلي ورغباتي وقناعاتي، ولن يهمني نظرة أحد أو قول أحد... هذا هو الموضوع كله باختصار يا شروق.

- أتفهم جيدًا وجهة نظرك هذه وكل ما قلتيه، لكن هل من الممكن أن ترتديه مرة أخرى في المستقبل؟

- إذا استمرت قناعاتي وأفكاري كما هي الآن فلن أرتديه... لكن إذا تغيرت مع الأيام فقد أعود فأرتديه، مَن يدري كيف سيكون تفكيره ونظرته للأمور وللحياة بعد مثلًا عشرة أعوام من الآن؟

- وماذا هو رأي والدكِ في خلعكِ للحجاب؟

- والدي مُصاب بمرض الزهايمر، هو لا يتذكر أصلًا أني كنت أرتديه.

- وماذا عن رأي بطل قصة حبكِ الحالية؟ بالمناسبة ما اسمه؟

- تامر... هو الذي شجعني على تنفيذ رغبة وقرار أنا في تمام الاقتناع بهما، قال لي إن الحجاب ليس هو مقياس الإيمان، الأخلاق هي المقياس في المقام الأول... المشكلة يا شروق في نظرة المجتمع الذي يشن حربًا نفسية ضدي، ويعتبرني وكأني مذنبة ارتكبت جُرمًا، مع أني لم أؤذِ أحدًا أو أتسبب في الإساءة لأحد... تعرضتُ لردود أفعال هزلية من الآخرين، وأيضًا من بعض البنات والسيدات هنا في الشركة عند التقائي بهن

في الممرات أو قاعة الطعام أو الاجتماعات، لكني أستخدم اللامبالاة حتى تمر هذه المرحلة ويتقبلوني كما أنا أو لا يتقبلوني، لن يهمني هذا في شيء.

- مَن يسير عكس التيار يجب عليه أن يدفع الثمن.

- نعم بالضبط كما قلتِ... المهم أن يكون الإنسان في تصالح مع نفسه، وليذهب المجتمع بآرائه وغضبه إلى حيث يريد.

- والأستاذ ربيع، ماذا كان تعليقه؟

- أسعده كثيرًا قراري، وقال لي أني أجمل هكذا وأكثر ذكاءً... لا أعرف ما هي علاقة الذكاء بالشَعر، لكن هذا هو رأيه، وقد راق لي كثيرًا.

رحاب مهندسة مدني، هي أيضًا لا تعمل مثلي في مجال تخصصها، لكنها ذكية جدًا ومرحة ولماحة، وأنتقدها دائمًا في أنها لا تستقر في محطة حب واحدة، فهي تخرج من قصة حب لترتمي في أحضان قصة أخرى، وكثيرًا ما تشاكسني كلما كان لدينا بعض أوقات فراغ أثناء اليوم في العمل وتقول لي: "ألا يوجد في الأفق بوادر حب جديد؟".

حكيت لها عن كل حب وقعت فيه واستكثرته عليّ الأيام، مات الحب الأول قبل أن يُولد، ومات الثاني قبل أن يكتمل، فقالت لي:

- الحب لا ينتهي مادمنا على قيد الحياة؛ لا تقلقي، لا بد وأن يأتي يومًا حب جديد.

- لستُ قلقة، ولستُ حتى في انتظار أي حب جديد... أصبحتُ أخشى من الموت على أي حب جديد قد يأتيني.

****

12

اليوم أكون قد أكملت ثلاثة أشهر وأنا بوجه سحابة... انقطعتُ عن الذهاب للمعالج النفسي بعد أن اتبعت التدريبات التي أعطاها لي ولم يجّد جديد في مشكلة وجهي، تقبلته أحيانًا وتجاهلته في أحيان أخرى، ووقفتُ كثيرًا أمام المرآة وتسائلت: لماذا هذه السحابة في وجهي؟ ولماذا أنا؟ لا بد وأنها قد جاءت هنا عن طريق الخطأ، فالسُحب مكانها الوحيد هو السماء وليس وجوه البشر... وفي أوقات كثيرة أخشى أن تتطور حالتي؛ فمثلًا إذا غضبتُ قد يخرج من وجهي برق يُصيب الآخرين فيعمي أبصارهم، وإذا ضحكتُ قد يخرج من فمي رعد يصم آذانهم، وإذا بكيتُ قد أُمطر فأُغرقهم... بوجه على هيئة سحابة، قد أُصبح خطيرة في أي وقت.

رأيت هذه الليلة حُلمًا غريبًا، كنت في البيت وكان هناك آخرون يعيشون فيه، أسرة مكونة من سبعة أفراد: الأب والأم وثلاثة أولاد وبنتان... جميعهم لا يرونني، ولا يشعرون بوجودي، وأنا أتنقل في البيت وأشاهد كل ما يفعلونه، وأسمع كل ما يقولونه... في المطبخ كانت الأم تطهو الطعام ومعها إحدى ابنتيها تساعدها، فتاة جميلة ربما لم تكمل العشرين من عمرها بعد، جذبتني الرائحة، فوقفتُ في المطبخ أتابعهما وهما تعدان الطعام، الأم أمام الموقد تقوم بتحمير البصل وهي تدندن بكلمات أغنية دارت الأيام لأم كلثوم: (وصفوا لي الصبر لقيته خيال وكلام في الحب، كلام في الحب، يا دوب يا دوب ينقال)، والبنت تقوم بتقطيع بعض الخضروات... تركتهما في المطبخ وذهبت للصالة، حيث كان الأب يجلس أمام التليفزيون المفتوح وهو لا يتابع شيئًا مما يُعرض عليه، لأنه يُمسك بجريدة ومنهمك في قرائتها... تركته وفتحت إحدى الحجرات التي كان فيها الأولاد الثلاثة، الحجرة بها سرير كبير وآخر صغير ومكتبان، أكبرهما مستلقي على السرير الصغير، يُقلب صفحات مجلة، نظرت معه في المجلة التي كانت في يده، وقد كانت مجلة أزياء نسائية، صور فتيات جميلات يعرضن ملابس زاهية الألوان، تركته مع مجلته واقتربت من الولدين الآخرين اللذين كانا يجلسان على المكتب، وقد اقتربت رؤوسهما وهما يهمسان، قربت رأسي منهما حتى أسمع ما يقولانه، وقد كانا يخططان لعمل مزحة سخيفة في أحد أصدقائهما، يقول الأول للثاني:

– سنُغطى الحفرة بورق كارتون، وعندما يقع فيها سنقترب منه ونضحك عليه.

ويرد الثاني عليه:

– وبعد ذلك نُخرجه منها ونقول له: "كده نبقى خالصين"... ونذهب بعدها نحن الثلاثة للسينما.

تركتهما لخططهما وذهبتُ للحجرة الثانية، والتي بدا أنها قد تم اقتسامها لحجرتين، حجرة للأم والأب وأخرى أصغر للبنتين، في حجرة البنتين كان هناك سريران صغيران ومنضدة في إحدى الجوانب، وعلى سرير منهما تجلس بنت صغيرة في حوالي العاشرة من عمرها، بضفيرة شعر ذهبية اللون وعينين تميلان للأخضر، تضع أمامها على السرير بعض الألعاب والصور والأقلام الملونة، تتفحصهم وتقوم بتغيير ترتيبهم على السرير... تركتها وعدتُ للصالة، جلستُ بجوار الأب الذي مازال يقرأ في الجريدة، وأنا أتمنى لو كان لي أسرة مثل هذه أعيش بينها... إنها أسرة عادية، أعتقد أيضًا أنها أسرة سعيدة، لكن لماذا أنا في الحلم هنا معهم؟

حاولتُ أن أتحدث مع هذا الرجل المنهمك في قراءة الجريدة، لكنه لم يكن يسمعني ولا يشعر حتى بوجودي، جذبت الجريدة من يده لكنها ظلت في مكانها... ذهبت لحجرة الأولاد وأخذت أصيح فيهم، لكن دون أن يلتفتوا إليّ... على طرف السرير جلست بجوار البنت الصغيرة، وحاولتُ أن أُبعثر الألعاب التي كانت عليه، لكن لم يحدث شيئًا، لم يكن لتحريكي الأشياء أي تأثير، ظلت كما هي مكانها... في المطبخ قلبت الأواني وصنعت بها ضجيجًا عاليًا، لكن ظلت الأم تدندن بكلمات الأغنية بصوت أعلى قليلًا من ذي قبل (وملينا الدنيا أمل، أمل وحنان) وهي تضع الخضروات وقطع الدجاج في القدر على النار، وكانت الفتاة تغسل المواعين... مددتُ يدي وتذوقتُ الطعام، فلم يمنعني أحد، أمسكتُ كوبًا زجاجيًا وألقيتُ به على الأرض، فلم ينكسر.

كان الليل لا يزال في كامل عتمته عندما استيقظتُ من ذلك الحلم الغريب، بعرق على الجبين وجفاف في الفم، تناولتُ كوب الماء من جواري، وشربتُ منه قليلًا، وأخذتُ أفكر في هؤلاء الذين رأيتهم في هذا الحلم، مَن هم؟ ولماذا كنتُ أتابع حياتهم؟... إنه نفس بيتي هذا الذي أعيش فيه، نفس الحجرات والصالة والمطبخ والحمام، هل من الممكن أنهم كانوا يعيشون هنا قبل أن أسكن أنا في هذا البيت، وقبل أن يسكنه تاج، ثم جائني طيفهم في المنام، لكن لماذا؟ ماذا يريدون مني؟

قمتُ من مكاني كي أذهب للحمام، لكني عندما مررتُ بجوار المرآة، لمحتُ وجه شخص غريب، ليست السحابة ولستُ أنا... عدتُ بخطواتي للوراء حتى أصبحتُ أمام المرآة، وقد صعقني ما شاهدته، كان وجهي عبارة عن وجه فتاة

لا أعرفها، عينان سوداوتان، شفتان مكتنزتان، أنف صغير، خدود حمراء، بشرة خمرية... دققت النظر أكثر فعرفتها، إنها الفتاة التي كانت في الحلم مع أمها في المطبخ، لكن ماذا يفعل وجهها في مكان وجهي؟

نفضتُ رأسي بشدة حتى أُسقط عن عينيّ ما أراه، لكنه لم يسقط، ذهبت للحمام فغسلت وجهي كي تزول ملامح تبعتني من مجرد حلم، لكنها لم تزُل... فحصتُ باقي جسدي جيدًا خوفًا من أكون قد تم استبدالي بالكامل وليس ملامح وجهي فقط، لكن لم يكن هناك شيئًا قد تغير فيّ غير وجهي... تحدثت للمرآة:

- مَن أنتِ؟ ماذا تريدين؟

كنتُ أتكلم فلا تتحرك الشفتان في المرآة، أسمع صوتي فقط لكني لا أرى حركتهما أمامي.

جلستُ في الصالة في حالة ذهول، هل أنا أدخل مرحلة جديدة من مرض نفسي أم ماذا؟ هل هذه هلاوس بصرية أم خيال أم حقيقية أم أية لعنة هذه التي أصبحتُ عليها؟ هل سيراني الناس الآن بوجه غير وجهي؟ وإذا حدث هذا، فكيف سأتعامل معهم؟ تحت أي اسم وبأية شخصية... حتى الصباح وأنا أتخبط في أفكار لا نهاية لها، وللحظة اشتقت لوجهي السحابة، على الأقل أصبح مألوفًا بالنسبة لي، ولا يخص أحد غيري.

وبمجرد أن طلع النهار ذهبت لشقة أستاذ مينا أريد أن أتأكد كيف يراني الناس الآن؟ بوجهي أم بوجه سحابة أم بوجه فتاة لا أعرفها؟

- صباح الخير يا عمو مينا، هل ترى السحابة في وجهي أم ماذا ترى؟

- صباح النور يا شروق، ما هذا السؤال الصباحي الغريب؟... أنا لا أرى سحابة ولا أرى أي شيء آخر، أرى وجه شروق الذي أعرفه.

اطمأننت إلى أن وجهي الحقيقي مازال الآخرون يرونه، شكرته وعدت لشقتي دون أي تفسير آخر قد أعطيه له، فأنا لا أملك حتى تفسيرًا لنفسي... وقفتُ أمام المرآة والتقطت صورة لي بهذا الوجه الذي ليس وجهي.

ذهبتُ للعمل، وكنتُ كل عدة ساعات أُخرج المرآة التي أحتفظ بها في أحد الأدراج وأنظر فيها، فأرى وجه تلك الفتاة التي كانت في الحلم والتي لا أعرف حتى اسمها... لم أكن أدري ما هي المرحلة التي أنا مُقبلة عليها مع اختفاء السحابة وظهور وجه ليس وجهي، لذا قررتُ أن آخذ أجازة لمدة أسبوع حتى أعتاد على حالتي الجديدة بوجه غير وجهي... أخبرت رحاب بهذا ثم ذهبتُ لمكتب أستاذ ربيع الذي أصبحَت علاقتنا أقل حِدة مما قبل، بعد أن عملت لديه سكرتيرة جديدة غاية في الجمال والأناقة:

- - أستاذ ربيع أنا تقريبًا انتهيت من الجزء الخاص بي في المشروع الجديد، وسأُنهي المادة العلمية المطلوبة للتدريب خلال هذا الأسبوع.
- ممتاز يا شروق، أنتِ بالفعل مهندسة متفوقة... متى سيكون تدريب الموظفين على البرنامج الجديد؟
- بمجرد أن ينتهي مهندس أمير من الأجزاء الأخرى التي يعمل عليها، أعتقد في خلال ثلاثة أسابيع أو شهر على الأكثر.
- أريدكِ أنتِ أن تقومي بإعطاء التدريب للموظفين على البرنامج الجديد.
- وهو كذلك، لكني أريد أن آخذ أسبوعًا أجازة، وسأُنهي خلاله المادة العلمية المطلوبة للتدريب وأنا في البيت.
- خير، هل أنتِ بخير؟
- نعم بخير، لكني بحاجة لهذه الأجازة.
- كما تشائين، أرسلي لي إيميل بأيام الأجازة وسأوافق عليها.
- أشكرك أستاذ ربيع.

عندما عدتُ من العمل، وفي الطابق الأول وأنا أصعد السلم، فُتح باب المنزل المجاور للسلم والذي ليس لي أية علاقة بأصحابه، وخرج منه رجل في حوالي الثلاثينات من عمره، وعندما وقع نظري عليه تحرك شيء ما في قلبي، وكأني كنت

أحب هذا الرجل من قبل، مع أني لا أذكر أني رأيته مرتين متتاليتين من قبل؛ وقفتُ مكاني أنظر إليه وأنا لا أدري ما هذا الشعور الذي غمرني بمجرد أن رأيته، مر هو بجواري وابتسم لي محييًا برأسه، ثم تابع طريقه فازدادت ضربات قلبي.

صعدتُ درجات السلم جريًا حتى الطابق السادس، وأنا أحاول أن أهرب من هذا الشعور الذي باغتني فجأة بمجرد أن رأيت ذلك الرجل، دخلت البيت ووقفت أمام المرآة أنظر لوجه الفتاة الذي يحتل وجهي، وأنا لا أدري هل لها علاقة بهذا الذي حدث أم ماذا؟ لا بد وأن لها علاقة، هل وجهها نقل لي مشاعرها؟ هل كانت تحب هذا الرجل؟ أي خيال هذا الذي أصبحت أحياه.

رأيتهم مرة أخرى في الحلم، حلم أقصر من حلم الليلة الماضية، كانت الأم والأب في حجرتهما يتناقشان حول جهاز البنت الكبرى، وكيف سيستعدان لشراءه... وفي اليوم التالي وبمجرد أن استيقظتُ من النوم، ذهبتُ مُسرعة للمرآة، وأنا أتمنى أن تكون السحابة قد عادت لوجهي، لكن مفاجأة جديدة كانت في انتظاري، كنتُ أقف أمام المرآة أنظر أمامي لوجه المرأة التي كانت في الحلم، الأم التي كانت في المطبخ، اختفى وجه الفتاة وظهر وجه أمها... ماذا تريد مني هذه الأم هي الأخرى باحتلال ملامحها لوجهي؟

التقطتُ صورة لوجهي الجديد الذي هو وجه الأم التي لا أعرف اسمها أو حتى عمرها، ثم أردتُ أن أُوقف التفكير في هذا الذي يحدث لي، جلستُ لساعات أعمل في إعداد المادة العلمية المطلوبة للتدريب في العمل، ثم دخلت المطبخ وأخذت أشغل نفسي في إعداد وجبة طعام صعبة وتحتاج لوقت ومجهود، وفوجئت وأنا أقوم بإعدادها بأني كنت أدندن بجزء من أغنية دارت الأيام (وهلّ الفجر بعد الهجر بلونه الوردي بيصبح)، إنها نفس الأغنية التي كانت تدندن بها الأم في الحلم وهي تقوم بإعداد الطعام!

وفي المساء انتظرتهم مرة أخرى في الحلم؛ وقد كان، رأيتُ الابن الأكبر وهو يكتب خطابًا كله حب وشوق لحبيبته، جلست بجواره في الحلم وقرأت بعضًا مما كتب في خطابه (عندما تصلكِ قصيدة جديدة مني؛ انظري فيها جيدًا... ستجدين أنكِ بداخلها... متوارية خلف كل حرف، ونائمة بداخل كل معنى... صوركِ التي تزينها وليست الصور الجمالية... قلبكِ الذي يدق بداخلها وليس نبض الحروف).

في اليوم الثالث، تجمدت نظرتي في المرآة وأنا أرى وجهي وقد تحول لوجه أحد أولاد تلك الأسرة التي كانت في الحلم، وجه الابن الأكبر الذي بدا في العشرينات من عمره، عينان شديدتي السواد، رموش طويلة، حاجبان كثيفان، وذقن غير محلوقه.

لم أكن أدري هل أضحك أم أبكي أم ماذا أفعل وسط كل هذا الذي يحدث لي... وانتهى بي الحال إلى أن ألتقطت صورة لشكلي الجديد، جسم امرأة ووجه رجل.

رأيتهم مرة أخرى في الحلم وهم يلتفون حول التليفزيون ويشاهدون أحد أفلام إسماعيل ياسين القديمة، ويضحكون بشدة، جلست أشاهد معهم وأضحك مثلهم وهم لا يسمعونني، كنت على مقربة من الأب، وجاءت البنت الصغيرة لتجلس على رجليه وتطلب منه أن يُحضر لها أيس كريم... وفي اليوم الرابع، أصبحتُ بوجه البنت الصغيرة، وقد اعتدت هذه اللعبة التي تلعبها الأيام معي، ولم يعد يفزعني وجهي المختلف كل يوم عندما أنظر في المرآة... كانت عينيّ البنت غاية في الجمال بلونهما الأخضر الهادئ الجميل، لكن لم يكن لي شعر ذهبي كما رأيت شعرها في الحلم، كنت مازلت أحتفظ بشعري الأسود... كم أحببت نفسي وأنا بوجه طفلة جميلة كهذه، التقطتُ لها أكثر من صورة: وأنا أضحك، وأنا أُكشر، وأنا أندهش.

اشتريت طابعة ألوان وقمت بطباعة الصور حتى تكون بنفس الألوان، ثم ذهبت في المساء لزيارة الأستاذ مينا، أخذت معي صينية جلاش باللحمة المفرومة كنت قد أعددتها خلال اليوم، وأخذت أيضًا بعض الصور التي التقطتها للوجوه المختلفة التي تظهر مكان وجهي منذ عدة أيام... تناولنا العشاء معًا، وعرضت عليه الصور فقال لي:

- صور جميلة لكِ يا شروق.

إذًا فكما توقعت، لا أحد يمكنه رؤية هذه الوجوه غيري... ثم فتحت معه حوارًا في محاولة مني لمعرفة تاريخ هذه الشقة التي أعيش فيها:

- منذ متى وأنت تسكن في هذه الشقة يا عمو مينا؟

- منذ أن تزوج مايكل وتركت له شقتي القديمة التي هي أكبر وفي مكان أرقى من هذا، هو يحتاجها أكثر مني، وأنا تكفيني هذه الشقة البسيطة أقضي فيها باقي العمر الذي لم يبقَ منه الكثير.

- ربنا يعطيك طولة العمر... هل تعرف مَن كان يسكن هذه الشقة التي أعيش فيها قبل تاج؟

- لا، عندما جئت لم يكن هناك أحد بهذه الشقة ثم بعد حوالي عام سكن فيها تاج... هل سمعتِ شيئًا عن هذه الشقة؟

- شيء مثل ماذا؟ أخبرني ماذا تقصد؟

- سمعت مرة أنه كانت تسكنها عائلة مات كل أفرادها خنقًا بغاز البوتجاز.

شعرت وأن قلبي قد توقف عن النبض للحظات وأنا أسمع ما يقوله الأستاذ مينا... هل تلك الأسرة هي التي رأيتها في الحلم، وأفرادها يتناوبون على احتلال ملامح وجهي؟

- أرجوك يا عمو مينا أخبرني أكثر عن تفاصيل هذه الحكاية.

- لا أعرف أكثر مما قلته لكِ، أنا لم أكن أسكن هنا عندما حدثت هذه الحادثة... لماذا أنتِ تهتمين بموضوع قديم كهذا لا أحد يذكره.

- فقط لديّ فضول لكي أعرف... مَن كان هنا من سكان المبنى عند وقوع هذه الحادثة؟

- أعتقد الست سعدية في الدور الخامس... لكنها عجوز جدًا، قد تقترب من التسعين من عمرها، وربما لا تتذكر الماضي.

جائوني مرة أخرى في الحلم وهم يتناولون الطعام، ويتناقشون حول درجات امتحانات الأولاد المراهقين... وفي اليوم الخامس تحول وجهي لوجه أحد الأولاد المراهقين في الحلم، وفي اليوم السادس تحول وجهي لوجه الولد الآخر... أصبحتُ لا أُشبه أحدًا، في كل يوم لديّ ملامح وجه مختلفة، على الأقل أصبح لي ملامح بعد أن اختفت

السحابة... قررت أن أقوم بزيارة الست سعدية في الدور الخامس، وسؤالها عن تلك الأسرة التي كانت تسكن في هذه الشقة، لا بد وأن لديها أخبار قد تُطفئ نار الحيرة التي تأكلني من اقتحام هذه الأسرة الميتة لأحلامي ووجهي.

تعيش مع الست سعدية كما عرفت من أستاذ مينا، ابنتها المطلقة غادة ومعها طفلتين، فتحت لي غادة الباب وبدا أنها تعرفني:

- أهلًا أهلًا بشمهندسة فراق، أم أقول شروق؟ خطوة عزيزة... تفضلي.

دخلت وأنا لا أدري من أين تعرفني وتعرف اسمي السابق واسمي الحالي، وأنا ليس لي تعامل مع معظم السكان هنا؛ وكأنها شعرت بما أفكر فيه فأجابتني دون أن أسأل:

- أنا أعرف حضرتك من زمان، منذ أن سكنتِ هنا في الدور السادس... لكن لم تكن هناك فرصة لنتعارف... أنا صديقة أم سامح وهي تحكي لي عنكِ كثيرًا، وتحبك أيضًا.

ابتسمت لكل هذا الشرح الذي شرحته، ونظرت لطفلتيها وهما تلعبان في أحد أركان الصالة:

- أشكرك يا غادة، جملية بناتك، كم عمرهما؟

- سُها سبع سنين، وسلوى خمس سنين.

- الحقيقة أنا جئت أسأل ست سعدية عن حكاية قديمة.

- أمي لا تتذكر شيئًا الآن... الحمد لله أنها تتذكرني أنا والبنات.

- ربما أنتِ تتذكرين هذه الحكاية... هل تسكنون هنا في هذه الشقة من سنين طويلة؟

- أنا مولودة في هذه الشقة، ثم عدتُ إليها بعد طلاقي.

- هل تذكرين الأسرة التي كانت تسكن في الشقة التي أعيش فيها الآن، وماتوا فيها بغاز البوتجاز؟

- طبعًا أذكرهم، الله يرحمهم جميعًا، بنتهم أمل كانت في نفس المدرسة الثانوية التجارية التي تعلمت فيها، كنا في العام الأخير عندما حدثت هذه الحادثة الفظيعة.

أمل... أكمل الاسم الصورة الجميلة لوجهها الذي ظل يحتل وجهي ليوم بأكمله:

- هل تعرفين تفاصيل ما حدث لهم؟

- لماذا تسألين؟ إنها حكاية قديمة جدًا.

- لقد سمعتُ بها مؤخرًا، ولديّ فضول لأعرف الحكاية كلها.

- لقد سكنوا في هذه الشقة حوالي عام فقط قبل الحادث، لذلك لا يعرفهم الكثيرين في المنطقة، أنا كنت أعرف أمل لأننا كنا نذهب للمدرسة ونعود منها معًا... والدها كان يعمل في وظيفة حكومية ووالدتها "أبله مديحة" لم تكن تعمل.

لقد عرفت اسم الأم أيضًا، مديحة... وأريد أن أعرف الباقي.

- والأب، ماذا كان اسمه؟ وماذا عن أسماء باقي الأسرة يا غادة؟

- الأب كان اسمه عبد السلام، البنت الصغيرة كانت في إبتدائي واسمها حنان... والابن الأكبر كان في كلية الحقوق واسمه عاطف... وحازم كان في الاعدادية ووائل كان في أولى ثانوي.

شكرت غادة على كل هذه المعلومات القيّمة، وتركتها مع وعد بزيارة أخرى... وقبل أن أغادر سألتها عن والدتها، وهل يمكنني أن أُسلم عليها؛ فدخلت لإحدى الحجرات وعادت تجر كرسيًا متحركًا عليه سيدة طاعنة في السن، انطفأ بريق عينيها لكن نظرتها ثابتة، اقتربت منها وسلمت عليها، فضيقت عينيها وهي تقول لي: "مين؟ صفاء؟"... ربت على يدها وتركتها واتجهت للباب وأنا أسأل غادة عمَن تكون صفاء، فقالت إنها أختها الكبيرة المتزوجة والتي تعيش في الكويت، وأمها تعتبر كل الآخرين صفاء.

صعدت درجات السلم وأنا أفكر في أن الأم قالت لي في الحلم أسماء ابنتيها وهي تغني (وملينا الدنيا أمل وحنان)... كم من رسالة أخرى في تلك الأحلام لم أفهمها؟

زيارتهم الأخيرة لي في الأحلام كانت مقتصرة فقط على الأب، الذي كان يقوم بجمع بعض الأوراق ويضعهم في حقيبة بلاستيكية شفافة، كان يُغلف أيضًا بعض شرائط تسجيلية بأغلفة بلاستيكية، لم أكن أعي في الحلم ماذا يفعل ولماذا، وعندما استيقظت في اليوم السابع، وجدت أني أحمل وجه الأب، الأستاذ عبد السلام، بشرة سمراء، عينان حزينتان، شارب خفيف، وتجاعيد كثيرة... نظرت إليه طويلًا في المرآة، سألته ماذا يريد مني هو وأسرته؟ ما الذي يريدون قوله لي؟ ماذا يمكنني أن أقدم لهم؟ كيف أستطيع أن أساعدهم؟ لكن لم يأتيني أي جواب، فقط عينان حزينتان تنظران لي في المرآة، وشفتان مضمومتان لا تقولان شيئًا.

مع ظهور هذه الأحلام أصبحت أتجول كثيرًا داخل البيت، أدخل الحجرات والمطبخ والصالة والحمام، أحاول أن أستشعر وجودهم السابق في المكان، ربما تخبرني الحوائط أو السقف أو الأرض بما حدث لهم، بما يريدونه مني... لكني لم أشعر بشيء... هل يمكنني أن أستخلص من ذرات الهواء ضحكات قديمة كانت هنا منذ أعوام طويلة؟ هل أستطيع أن أجمع من فوق الحوائط نظراتهم التي وقعت عليها؟ هل في مقدور المكان أن يحتفظ بشيء مما حدث فيه من أحاديث، مشاعر، حياة؟

انتظرت بصبر نافذ اليوم الثامن، ترى هل سيعاودون الكرّة مرة أخرى ويتناوبون بوجوههم على وجهي أم ماذا سيحدث؟ لكن في اليوم الثامن عادت السحابة لقواعدها سالمة، وفي اليوم الذي يليه ظللتُ بوجه السحابة... انسحبت كل الوجوه التي احتلت وجهي وبقيت السحابة، وبقيت علامات الاستفهام التي لا أجد لها إجابات.

من الصور السبعة التي التقطتها لي وأنا بهذه الوجوه المختلفة، جمعتهم في صورة واحدة، أصبحت كل الأسرة أمامي، بالطبع إذا شاهد أحد غيري هذه الصورة سيرى نفس وجهي يتكرر سبع مرات في صورة واحدة، فأنا الوحيدة التي يمكنني رؤيتهم... أردت أن أتأكد أنهم نفس الأشخاص الذين سكنوا في هذه الشقة من قبل، لذا فقد اشتريت علبة شيكولاته وبعض ألعاب الحروف والحيوانات، وذهبت مرة أخرى لغادة، شكرتني على الهدايا التي فرحت بها طفلتيها، ثم سألتها إن كان لديها صورة لصديقتها أمل، أو صور لباقي الأسرة:

- صورة أمل نعم، لكن لا أدري هل لديّ صور لباقي الأسرة أم لا.

ثم فكَرَت قليلًا وقالت:

- انتظري، لقد حضرت مرة حفلة ذكرى يوم ميلاد حنان، ولي معهم بعض الصور؛ سأُحضر ألبوم الصور لأريكِ إياها.

أحضرت ألبوم صور قديم، وظلت تبحث فيه، ثم أخرجت لي خمس صور، اثنان لها مع أمل وثلاثة من الحفلة، تظهر فيها حنان والأم والأب وأحد الأولاد المراهقين، كانت هي صورهم بالضبط، هؤلاء الذين رأيتهم في الحلم والتصقوا بوجهي لمدة أسبوع بأكمله... شكرتها وطلبت منها أن تسمح لي أن ألتقط صور بكاميرة الموبايل لهذه الصور؛ فسألتني:

- لماذا تهتمين بهذه الحكاية القديمة بهذا الشكل؟

- مجرد فضول.

- أخشى أن تكوني قد عثرتي في الشقة على كنز خاص بهم، وتريدين أن تعرفي حكايتهم.

ثم ضحكت وضحكت معها، وقلت لها في محاولة لمعرفة أي معلومات أخرى عنهم:

- هل كانت أمل تحكي لكِ عن أسرتها أو عن أسرارها.

- كل أسرارها كانت معي، وكل أسراري كانت معها... كانت تأتي لتذاكر معي هنا ونظل نحكي حتى وقت متأخر من الليل، أحيانًا كانت تنام هنا معي.

- تبدو جميلة في الصور... وأنتِ أيضًا جميلة يا غادة.

- لسنا أجمل منكِ يا بشمهندسة... أمل كانت تحب ابن الجيران، وأنا كنت أحب ابن عمي، هي ماتت وأنا أصبحت مُطلقة... هل ترين الحظ.

- كانت تحب ابن أحد الجيران هنا في المبنى؟

- نعم، الأستاذ حسن في الدور الأول، وهو كان يحبها أيضًا، لكنه أحب غيرها بعد أن ماتت وتزوج ولديه الآن ثلاثة أبناء.... سُنة الحياة، الحي أبقى من الميت.

إذًا شعوري عندما رأيته بوجه أمل كان حقيقي، كان صادقًا... شعرت برأسي يدور من كل هذا الذي عرفته، فتركت غادة وصعدت لمنزلي.

انتظرتهم يحضرون مرة أخرى، أن يقولوا ولو بالإشارة ماذا يريدون مني، ما هي حكايتهم، وما هو سر موتهم الجماعي هذا، لكن لم يأتوا مرة أخرى في الحلم، ولا ظهروا على صفحة وجهي، وظلت السحابة هي وجهي الذي اعتدت عليه.

في دفتر جديد بغلاف أسود اللون، كتبت كل ما عرفته عن هذه الأسرة، كل الأحلام التي رأيتهم فيها، تفاصيل وجوههم التي عشت بها أسبوعًا بأكمله... ثم وضعت وسط الدفتر الصور التي التقطتها لوجوههم التي صاحبت وجهي، وتلك الصور التي التقطتها من صور غادة القديمة، ثم خبأت الدفتر في أحد الأدراج، في انتظار أن يظهروا مرة أخرى، فأكتب عنهم المزيد في هذا الدفتر.

****

13

أدخل شهري الرابع الآن وأنا بدون ملامح وجه، مازلت بملامح سحابة؛ لم يفدني الطب النفسي بشيء، غير أدوية رفضت أن آخذها، أما علم النفس فقد ساعدني على أن أتقبل وجهي كما هو، لكنه لم يستطع أن يُعيده إليّ، أراحتني نصائح وتدريبات الأخصائي النفسي والتي قمت بتنفيذها، لكنها في النهاية مثل قناع يُخفي فقط بشاعة الحقيقة.

اشتريتُ مرآة مقعرة تقوم بتكبير الصورة، ومن وقت لآخر أنظر فيها حتى أرى أدق تفاصيل وجهي السحابة، ربما كانت جزيئاتها تتحرك وأنا لا أدري، تترقرق على سطحها قطرات ماء وأنا لا أرى، ربما تظهر فيها بعض البثور الصغيرة التي لا تعكسها المرآة العادية، أو بعض التجاعيد السحابية... ترى هل تتقدم السحابة في العمر ويخفت جمالها مع جريان السنين؟

مع كوبيّ شاي وقطعتين من كيكة البرتقال، تحدثت مرة أخرى مع أستاذ مينا في موضوع وجهي السحابة، أخبرته عن الأخصائي النفسي الذي ذهبت إليه، وأنه رغم أني اتبعت نصائحه ونفذت تدريباته التي طلبها مني إلا أن وجهي مازال مختفيًا... ثم تذكرت أن المعالج النفسي قال لي في المرة الثانية التي ذهبت فيها إليه أن أطلب من أستاذ مينا أن يرسمني كما يراني وعلى الشكل الذي أُشبهه، لكني أريده أن يرسمني كما أنا وكما يراني في الحقيقة وكما يرى ملامح وجهي؛ وعلى الفور نظرت إليه وطلبت منه أن يرسمني، ماذا لو رسم ملامح وجهي، هل سأراها أم سأرى السحابة؟

بالفعل أحضر أستاذ مينا لوحة جديدة، وبدأ يرسم ملامح وجهي، وكان كلما رسم جزءًا يظهر لي في اللوحة قطعة من السحابة، شعرت بالاختناق فحتى الرسم متآمر مع السحابة... لم أستطع أن أشاهد وجهي وهو يتكون سحابة مكتملة الملامح، فتركته وعدت للبيت، وبعد يومين وجدته يُحضر لي لوحة وهو يقول:

– هذه أنتِ يا شروق... لقد رسمتكِ كما أراكِ وليس كما ترين نفسكِ.

لقد نفذ ما طلبه مني المعالج النفسي دون أن أخبره... فتحت اللوحة فوجدت زهرة توليب بنفسجية اللون، لها ساق طويلة ويتفرع منها أربعة أوراق خضراء... كانت اللوحة بالألوان الزيتية، والزهرة فيها ساحرة بلونها البنفسجي الفاتن، أقل ما يُقال عنها أنها تحفة فنية:

– لوحة بديعة يا عمو مينا، حضرتك فنان موهوب... لكن لماذا تراني وكأني زهرة توليب؟

– لأنها تشبهكِ في أناقتكِ وجمالكِ وحيويتكِ ونضارتكِ... وأيضًا لأن زهرة التوليب تعني الغموض.

– الغموض؟ هل أنا غامضة لهذه الدرجة؟

- ليس لهذه الدرجة، ولكن لدرجة ما.

هل أنا غامضة لدرجة ما؟ ترى لأي درجة يراني الناس غامضة؟ لم أسأله المزيد من الأسئلة لكني نظرت حولي لحوائط الصالة وقلت له:

- سأُعلقها هنا، بجوار لوحة الشجرة التي رسمتها لتاج.

- المهم كلما نظرتِ إليها أن تتذكري أنكِ جميلة مثلها، روحكِ تشبهها.

ذهب أستاذ مينا وقمت بتعليق اللوحة، ثم ابتعدت عدة خطوات للوراء، ووقفت أتأملها، وغصت بعينيّ في تفاصيلها وألوانها، ثم شعرت بصوت والد وجدان يمر بأذني وهو يقول (أنتِ تشبهين زهرة)، وها هو أستاذ مينا يرسمني على شكل زهرة، ترى ما هي حكايتي مع الزهور؟

في اليوم التالي، عند وصولي المكتب استدعاني أستاذ ربيع، ذهبت لمكتبه ولم تكن السكرتيرة في مكانها لذا فقد طرقت الباب ودخلت لأجدها هناك تقف بجواره وتزداد جمالًا كلما رأيتها، انسحبَت من المكتب وأغلقته ورائها، وبادرني هو بقوله:

- تفضلي يا شروق... لدينا عميل جديد سنتعاقد معه لشراء أحد برامجنا، ولقد اخترتكِ أنتِ لتكوني مسؤلة عن هذا المشروع.

- مسئولية كبيرة، أشكر ثقتك في قدرتي على إدارة هذا المشروع.

- أنتِ مهندسة ذكية ومتفوقة يا شروق، وأعجبني أدائكِ في المشروع الذي كنتِ تعملين فيه مع أمير؛ وأنا واثق من اختياري لكِ... سأُرسل لكِ على الإيميل كل تفاصيل المشروع الجديد وبيانات العميل، حتى تبدأي التواصل معهم، سيحضرون الأسبوع المقبل لاجتماع أولي لمناقشة طلباتهم، وقومي بالتنسيق مع أمير بالنسبة للفريق الذي سيعمل معكِ.

- إن شاء الله تسير الأمور كما يجب.

- أنا واثق من هذا.

شعرت بسعادة لأنه أعطاني مشروع كامل لأكون مسئولة عنه وأديره بنفسي، ها أنا ذا أحقق تقدم ونجاح في عملي، وهذا بالتأكيد سيرفع نسبة حبي لهذا العمل... ذهبت على الفور لأمير وأخبرته بهذا المشروع، ففرح مثلي بهذا الخبر، وبدأ يناقشني فيمَن سيعمل معي في هذا المشروع.

حضرت رحاب اليوم متأخرة حوالي ساعتين عن موعد العمل، وبمجرد دخولها من الباب كانت تُشع بالفرح والسعادة وهي تقول لي بدلًا من صباح الخير:

- قولي لي مبروك يا شروق.

- ألف مبروك... والآن قولي لي السبب.

- قمت بالأمس بالاشتراك في تدريب إذاعي، والثلاثة الأوائل في نهاية هذا التدريب سيقومون بتقديم برنامج إذاعي لمدة عام بأكمله، سأبذل قصارى جهدي لأكون من هؤلاء الثلاثة الأوائل.

- خبر رائع يا رحاب.

- إنها خطوتي الأولى في طريق النجومية والنجاح... حتى أصل للتليفزيون يجب أن أمر أولًا بالإذاعة... ألا تعتقدين هذا؟

- لا أدري، ربما... على العموم كلها خبرات تُضاف لخطواتكِ على الطريق.

- خطوات إذاعية مسموعة.

وضحكنا معًا ثم قلت لها:

- وأنا أيضًا لديّ خبر سعيد.

- قولي بسرعة، يبدو أنه يوم الأخبار السعيدة، هل تعثرتِ في حب جديد هذا الصباح؟

- ألا تفكرين إلا في الحب؟

- وهل يوجد في الدنيا أجمل من الحب؟

- نعم يوجد، النجاح أجمل من الحب... الأستاذ ربيع أعطاني اليوم مشروعًا جديدًا لأكون مديرة هذا المشروع.

- واو... ممتاز جدًا... أنتِ لها يا بشمهندسة.

الروح الحماسية لرحاب أضافت جمالًا لليوم الذي كان جميلًا منذ بدايته، لكن ما أكثر الأشياء التي قد تعكر صفو الجمال في أي لحظة خاصةً إذا كانت سحابة تفرض وجودها على حياتي... فبينما أنا في طريق عودتي من العمل حدث لي شيئًا غريبًا في الشارع، على بُعد عدة أمتار من المبنى الذي أسكن فيه؛ وأنا أسير في طريقي كانت هناك سيدة تسير في الاتجاه المعاكس لي تحمل طفلة في حوالي عام من عمرها، وعندما مرا بجواري نظرت في إتجاهي تلك الطفلة وأشارت ناحيتي قائلة (سحابة)، عند سماعي لهذه الكلمة التي تصف وجهى توقفت مكاني من هول المفاجأة، إنها ترى وجهي السحابة!... أسرعت ألحق بالأم وابنتها وأوقفتها وأنا أسألها:

- ماذا قالت ابنتكِ وهي تُشير ناحيتي؟

اندهشت الأم من تصرفي هذا وردت عليّ:

- ماذا قد تكون طفلة صغيرة قالت لكِ؟

- هل قالت سحابة؟ هل سمعتيها تقول هذه الكلمة؟

- وما هي المشكلة في أن تقول سحابة؟ إنها تتعلم نطق الكلمات الجديدة والسماء مليئة بالسُحب.

ثم احتضنت ابنتها بقوة وأسرعت مبتعدة عني خوفًا من أن أكون شخص مجنون... ووقفت أنا في مكاني بلا حركة، أُحاول فَهم ما حدث للتو، وأن هناك عينان غير عينيّ استطاعتا رؤية وجهي السحابة، ثم نظرت للسماء فوجدتها بالفعل مليئة بالسُحب... هل كانت الطفلة تقصد بكلمتها وجهي أم سحابة من السماء؟

لم أستطع العودة للمنزل قبل أن أتأكد مما يدور في رأسي من أفكار حول إمكانية الأطفال رؤية وجهي السحابة... أخذت أسير في الشوارع وأقترب من أي طفل يسير مع والديه، بعضهم كان يتجاهلني، وبعضهم شعرت به ينظر إليّ وقد اتسعت حدقتا عينيه، لكن لم يشر أي منهم ناحيتي ويقول سحابة.

تكون بداخلي يقين قوي بأن الأطفال في عمر عام أو عامين لديهم القدرة على رؤية وجهي السحابة، لأن أعينهم مازالت بريئة نقية، أما أعين الكبار فلا يمكنها أن ترى الخوارق والعجائب مثل وجهي، فهي بالتأكيد قد ارتكبت من المعاصي ما يمنعها من ذلك.

ماذا عن أعين المخلوقات الأخرى؟ ضرب السؤال رأسي فجأة وأنا أسير في الشارع، وأخذت أفكر في القطط والكلاب والطيور، هل يمكن لأعينها أن ترى وجهي السحابة؟ وإذا استطاعت أن تراه، فكيف لي أن أعرف هذا؟

أخذت أبحث من حولي في الشارع عن أي قطة أو كلب، وقفت أسفل بعض الأشجار وأنا أبحث بين أغصانها عن عصفور... ماذا سيحدث لو رأت الحيوانات والطيور وجهي السحابة؟ هل سيفرون مني أم سيطاردونني؟ كنت أنقاد وراء أفكار تكاد أن تُصيبني بالجنون؛ لذا فقد وضعتُ حدًا لكل هذا وعدتُ مسرعة لأمان المنزل الذي يمكنه أن يحميني من كل العيون، موقفة عقلي عن التفكير في أي شيء.

في البيت وقفت أمام النافذة، وأنا أُمسك بكوب شاي أدرت إصبعي على حوافه وأنا أفكر في احتمالية تطور حالتي ليُصبح في إمكان الآخرين رؤية وجهي السحابة، سيبدأ الأمر بالأطفال، ثم بالأكبر عمرًا، فالأكبر، وهكذا حتى يستطيع الجميع رؤية السحابة التي تحتل وجهي، ماذا سيحدث لي إذا تحقق هذا؟ أي مصير قد أكون مُقبلة عليه؟... شربت القليل من الشاي ثم أخذت أنظر للسُحب في السماء وأراقب سرب طيور يحلق بعيدًا... هل وجهي هو سحابة صيف أم سحابة شتاء؟ لأي الفصول قد أصلح؟

انغمست تمامًا في إدارة مشروعي الجديد في العمل، اجتماعات ومناقشات وتحضير وإدارة، تجربة غنية أضافت لخبراتي وأكلت المزيد من وقتي، حتى في المنزل كنت أصطحب العمل معي ليؤنسني.

وها هو شهر رمضان الكريم سيبدأ في الغد، فرصة لمزيد من الدعاء ومزيد من الصلاة، فرصة عظيمة لا تأتي إلا مرة واحدة في العام لجني ملايين الحسنات وإحياء القلوب الميتة، لذا يجب عليّ أن أضع خطة مُحكَمَة لاستغلال أوقات هذا الشهر الثمينة، أحضرت دفتر العبادات الذي أخصصه لمثل هذه الخطط والمشروعات؛ وبدأت في وضع خطة العبادة لشهر رمضان كما أتمنى، ثم سمعت طرقًا على الباب، فتحته فوجدت أستاذ مينا يقف أمامي وفي يده فانوس رمضان؛ أعطاه لي وهو يقول:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا شروق... رمضان كريم.

- وحضرتك طيب يا عمو مينا، ألا تنسى أبدًا الفانوس في كل عام... الله لا يحرمني منك.

- تسلمي يا بنتي... سأتركِكِ مع الفانوس، تصبحين على خير.

- لا يمكن، يجب أن تتناول العشاء معي... طهوت اليوم صينية بطاطس باللحمة في الفرن ستعجبك.

- لا أستطيع، سيأتي مايكل بعد قليل ليأخذني للطبيب.

- سلامتك... ماذا بك؟

- مشاكل القلب العادية، لا شيء جديد.

ذهب أستاذ مينا، ولعبت بعض الوقت بالفانوس الجديد، سِرت به أغني في الصالة والحجرات والمطبخ، وأنا أتخيل أن هناك أسرة تعيش معي وتشاركني الاحتفال بقدوم الشهر الكريم، قالت لي أمي المتخيَلَة التي كانت تتابع حلقة من مسلسل تليفزيوني: "لا تنسي يا شروق أن تحضري معكِ في الغد كنافة، وأنا سأُعد لكم إفطارًا شهيًا"... وقال لي أبي المتخَيَل الذي كان يقوم بتغيير إحدى اللمبات في الصالة: "لا تسهري كثيرًا يا شروق حتى يمكنكِ الاستيقاظ في

السحور"... وتخيلت أن لي ثلاثة أخوة كلهم من الذكور، أحدهم يتحدث في الموبايل، والآخر خرج مع أصحابه، أما الثالث فيقف في النافذة يعاكس بنت الجيران.

بعد أن انتهيت من اللعب بالفانوس ومن التخيل، وضعته فوق أحد الأرفف الذي أخصصه لفوانيس رمضان التي يحضرها لي أستاذ مينا كل عام منذ أن انتقلت للعيش هنا... وقبل أن أعود لوضع خطة رمضان سمعت طرقًا على الباب مرة أخرى، ترى مَن يكون هذه المرة؟ غير معقول أن يكون أخي الذي تخيلته وقد خرج مع أصحابه... فتحت الباب فوجدت عمّة تاج، قبلتني وأعطتني حقيبة بها "ياميش رمضان" الذي أحضرته لي، رفضت أن تبقى بعض الوقت لأنها يجب أن تذهب لابنتها إلهام لتعطيها الحقيبة الخاصة بها قبل أن يتأخر الوقت؛ شكرتها بشدة وكنت سعيدة بأنها تعتبرني مثل ابنتها.

أكلت حفنة من اللوز وواصلت وضع خطة رمضان، وقبل أن أنتهي منها سمعت طرقًا على الباب، يبدو أن الجميع قد تذكروني هذه الليلة، فتحت الباب فوجدته يقف أمامي بابتسامته المعتادة وفي يده طبق كبير من الحلوى:

- سامح!... ما هذا؟

- ماما تقول لكِ كل عام وأنتِ بخير... غدًا أول رمضان.

- وأنت بخير وماما بخير وكلكم بخير... لم يكن هناك داعي لكل هذا.

ظل واقفًا مكانه مشرعًا ابتسامته عن آخرها، فأخذت منه طبق الحلوى وشكرته وأغلقت الباب... حالة سامح أصبحت مستعصية وأنا لا أجد لها حلًا، يزداد حبه لي كل يوم وأنا أزداد بُعدًا... هذا المراهق الذي لا يريد أن يفهم أنه لا يمكنه الاقتراب من مجال مشاعري مهما فعل.

أكلت من الحلوى، واستكملت وضع خطة مرضية لرمضان، ثم فتحت اللابتوب لأتفقد أحوال العالَم من حولي من خلال الانترنت، فوجدت إيميل من وجدان، لم نكتبت لبعضنا البعض منذ أشهر طويلة... ترى ما الذي جعلها تتذكرني الآن؟... فتحت الإيميل وبدأت أقرأ:

عزيزتي فراق

كيف حالكِ؟ أرجو أن تكوني بخير.

أعرف أننا تباعدنا كثيرًا في الفترة الأخيرة... الحقيقة تباعدنا منذ أن عرفت أن بابا يحبك ويريد الزواج منكِ، لم يخطر في بالي يومًا أن أجد نفسي في موقف كهذا مع صديقة عمري... المهم ليس هذا هو الموضوع الذي أريد الحديث فيه... فكرت أن نتقابل وأقول لكِ كل ما أريد، لكني لم أجد الشجاعة للحديث معكِ في هذا الموضوع وجهًا لوجه.

سامحيني يا فراق، واغفري لي لو استطعتِ، وأرجو أن تستطيعي.

لقد خبأت عنكِ شيئًا ما كان يجب أن أُخبأه، كنتُ مدفوعة بغضب وألم وعدم استقرار نفسي، ودفعني كل هذا لكي أفعل ما فعلت، لكني الآن أُريد أن أعترف لكِ وأريدكِ أن تسامحيني.

قبل أن يقوم بابا بإجراء عملية القلب المفتوح أعطاني صندوقًا صغيرًا وطلب مني أن أعطيه لكِ إذا حدث ولم ينجُ من العملية، ثم كرر طلبه هذا مرة أخرى قبل وفاته بساعات، طلب مني أيضًا ألا أفتح الصندوق فوعدته، لكني أخلفت وعدي... وبعد عدة أيام من وفاته تذكرت الصندوق، وسمحت لنفسي أن أفتحه، وأن أُخلف وعدي وأطلع على ما فيه، حتى أني قرأت الخطاب الذي كتبه لكِ قبل موته... أعرف أن هذه حقارة، لكني فعلتها، وعندما رأيت حجم حبه الكبير لكِ من خلال كلماته وكذلك أنه اختصكِ بأسرار لم أكن أنا ابنته الوحيدة أعرف عنها شيئًا، شعرت وقتها بالغضب الشديد بل والحقد عليكِ، ووصلت ربما لمرحلة كرهكِ... رأيت بوضوح أنكِ أصبحتِ تقتسمين حبه معي، أنا ابنته الأجدر بهذا الحب وحدي، وربما كنتِ تأخذين نصيبًا أكبر من نصيبي من هذا الحب... وفي هذه اللحظة، وأنا مدفوعة بكل هذا الغضب والكُره، قررت ألا أعطيكِ هذا الصندوق، ولن أسمح لهذه الكلمات أن تصل إليكِ... لذا فقد خبأته معي بكل ما فيه، ولم أقل لأحد شيئًا عنه... وتماديت في أفعالي فأحرقت فستان الفرح الذي اشتراه لكِ قبل سفره لمدريد، وكان لشدة اندهاشي وغضبي يحتفظ به وسط ملابسه.

وها أنا ذا الآن، بعد حوالي عام ونصف من رحيله، أندم على أفعالي هذه، وأريد أن أعطيكِ الصندوق الذي يخصكِ بكل ما فيه، وكل ما تركه لكِ قبل رحيله، لكن للأسف لن يمكنني أن أُعيد لكِ فستان الفرح الذي أحرقته... لا تسأليني عن الأسباب التي جعلتني أفعل هذا الآن، أُفضل الاحتفاظ بها لنفسي.

أنا في القاهرة هذه الأيام، وأود أن أراكِ لبضع دقائق لأعطيكِ الصندوق، وربما كان لقاؤنا الأخير.

رقم هاتفي كما هو... أخبريني ولو حتى برسالة عن المكان والموعد الذي يجب أن نلتقي فيه.

تحياتي.

وجدان

قرأت الرسالة ثلاث مرات، وأنا لا أدري بالضبط ما هي مشاعري، كانت مزيج من الحزن والألم والغضب في آنٍ واحد... كيف لها أن تمنع عني كلمات كنت في أمس الحاجة إليها، كيف لها أن تُخبئ وصية ميت عن قلب كان يحبه... هل يمكنني أن أسامحها على فعلتها هذه؟ هل يمكنني أن أغفر لها؟ ربما نعم، لكن ليس الآن، وليس قبل أن أقرأ الكلمات التي كتبها لي، والتي وحرمتني منها كل هذا الوقت.

أمسكت الموبايل وبحثت عن رقم وجدان، ثم بعثت لها بهذه الرسالة المختصرَة:

(الخميس – التاسعة مساءً – ستاربكس – سيتي ستارز).

وتلقيت منها الرد بعد خمس دقائق برسالة أكثر اختصارًا.

(أوك).

****

14

ليلة رمضانية هادئة وجميلة، وصلت مقهى ستاربكس مبكرًا عن الموعد، في حوالي الثامنة مساءً، طلبت "موكا" وجلست أشربها على مهل وأنا أنتظر وجدان... نظرت من حولي للجالسين في المكان، معظمهم من الشباب، وأكثرهم ثنائيات، فكرت في نفسي أنا المفرد الذي لا يكمله أحد، متى سأجد الحب الذي يمكنه أن يجلس معي على طاولة واحدة، نقتسم عليها كلمات بنفس النكهة، ونشرب من نبع حنين واحد.

ذهب تفكيري ذات يوم إلى احتمال أن يكون هذا الذي يحدث لي هو عَمَل من أعمال السحر، أحدهم صنع لي سحرًا يجعلني أرى وجهي على هيئة سحابة، وأرى كوابيس وأحلام لا تنتهي، وربما ربط هذا العَمَل في شجرة في الصحراء، أو دفنه في مقبرة قديمة، وقد أبقى هكذا لبقية عمري بوجه سحابة!... لكن مَن هذا الذي قد يصنع لي سحرًا كهذا، ولماذا؟ فكرت أن أذهب لأحد هؤلاء الذين يمكنهم أن يكتشفوا أعمال السحر ويداوا الناس منها، لكني خِفتُ من الدخول في هذا النفق المظلم الذي لا أعرف له مخرجًا والذي أخاف مما أقرأه عنه، لذا فقد أبعدت كل هذه الأفكار عن رأسي؛ ليكن سحرًا أو ليكن ما يكون.

أخذت أشرب الموكا اللذيذة، وأنا أُفكر في المكالمة الهاتفية التي تلقيتها هذا الصباح، والتي كانت من دكتورة فريدة التي كدتُ أن أنساها وأنسى لقائي الوحيد بها وبالطب النفسي... سألتني لماذا لم أعد مرة أخرى إليها، وسألتها باندهاش هل هي تتابع كل الحالات التي تأتيها بهذه الدقة وتقوم بالاتصال بهم:

- بالطبع لا... أنتِ حالة خاصة جدًا يا بشمهندسة فراق، لم تمر عليّ من قبل وربما لم تمر على طبيب آخر.

- بصراحة يا دكتورة فريدة أنا لم أتناول الدواء الذي وصفتيه لي، لأني لي مخًا واحدًا، ولا أريد تخريبه بأدوية أيًا كان مفعولها.

- أتفهم وجهة نظركِ... في الحقيقة أنا أقوم حاليًا بالتحضير لرسالة الدكتوراة، وأدعمها ببعض الحالات التي مرت بي، ووجدتُ أن حالتكِ متميزة جدًا، وأردتُ إن وافقتِ بالطبع أن...

قطعت جملتها قبل أن تُكملها:

- لا يا دكتورة، أنا آسفة... لستُ فأر تجارب، وليست حالتي محل نقاش أو دراسة.

- لا تفهمي الموضوع من هذه الناحية.

- أنا أفهمه من الناحية التي يجب أن يكون فيها.

- لا عليكِ، كان مجرد اقتراح، أعتذر مرة أخرى... وآسفة إذا كنت سببت لكِ أي ضيق... ويمكنكِ أن تأتي لعيادتي وقتما تشائين.

- أشكركِ على تفهمك لوجهة نظري، وأعتذر لأني لا أستطيع مساعدتكِ... حضرتك طبيبة مجتهدة، وستحققين نجاحًا كبيرًا في مجال عملكِ.

أنهيت المكالمة معها وأخذت أبكي، شعرت بالشفقة على نفسي، ها أنا ذا قد أصبحت مجالًا لأن أُوضع تحت الدراسة، ويتم عمل الأبحاث عن حالتي... أي بؤس أكثر من هذا قد أصل إليه؟

أخرجتي وجدان من التفكير في هذه المكالمة الصباحية عندما جاءت في تمام التاسعة، كدتُ لا أعرفها وهي تقترب من المنضدة التي أجلس عليها، نقص وزنها كثيرًا، وكانت شاحبة الوجه، ألقت عليّ تحية سريعة وجلست أمامي حتى قبل أن أرد عليها، في لحظة نسيت غضبي منها ومما فعلته بي، وسألتها عن حالها البادي أمامي:

- خير يا وجدان، ماذا بكِ؟ أراكِ متعبة.

ردت بسرعة واقتضاب:

- لا شيء.

ثم أخرجَت من حقيبة يدها حقيبة جلدية بنية اللون، بداخلها صندوق صغير، وضعتها أمامي وهي تقول:

- يجب أن أذهب الآن فهناك ضيوف في انتظاري في المنزل... آسفة مرة أخرى يا فراق، وسامحيني.

قامت من مكانها وذهبت دون أن تُعطيني أي وقت لأرد عليها، أو أن أطرح عليها أي سؤال... هكذا كان اللقاء معها، قصيرًا ومقتضبًا.

جلست حوالي عشر دقائق أنظر للصندوق الموضوع أمامي، دون أن يكون لديّ القدرة على أن ألمسه، شعرت وكأنه نعش بداخله جثة ماضي ميت، صندوق آخر يأتيني على غير موعد، وكأنه لم يكن تكفيني صناديق تاج التي تركها لي... بعد أن أطلت النظر للصندوق، استجمعت قوايّ وأخذته من مكانه، احتضنته بقوة، ودفعت حساب "الموكا"، ثم خرجت من المكان.

لم أنَم تلك الليلة حتى آذان الفجر... بعد أن عدت للبيت، ألقيتُ نظرة على السحابة التي كانت رمادية اللون، ثم أخرجت الصندوق من الحقيبة الجلدية وتفحصته من الخارج، صندوق من الصَدَف المتناسق الخطوط والدوائر، جميل وكأنه تحفة، يطوقه شريط أحمر من الحرير، لم يكن عليه أية كلمة مكتوبة من الخارج... وضعته أمامي وخفت أن أفتحه، لا أدري ماذا هناك ينتظرني بداخله لمدة عام ونصف... تركته مكانه وتوضأت وصليت قيام الليل، ودعوتُ الله كثيرًا ألا أجد بداخل الصندوق جرح آخر يؤلمني، يكفيني ما أنا فيه من جراح وفراق، ثم جلست أمامه وبقلب مرتعش فتحته.

كان بداخله خاتم سوليتير، عقد لؤلؤ أبيض وجميل، مفتاحان، خطابان، وبضعة أوراق... أمسكت بالمفتاحين، أحدهما مُلصق عليه ورقة مكتوب عليها "المهندسين"، والآخر عليه ورقة مكتوب عليها "مدريد"... تركت المفتاحين ومررتُ بيدي على الخاتم والعقد، ثم تناولت الخطابان، كان مكتوبًا على أحدهما من الخارج (إلى فراق)، والآخر ليس عليه أي شيء، لذا فقد فتحتُ الذي عليه اسمي وبدأت أقرأ:

حبيبتي فراق

أكتب لكِ هذه الكلمات قبل أن أدخل حجرة العمليات لإجراء عملية قلب مفتوح، وأنا لا أدري هل سأبقى على قيد الحياة بعدها أم لا... وقبل أن يَمَس مشرط جرّاح قلبي الذي يحبك، أردت أن أكتب لكِ ما لم تسمح لي الأيام بأن أقُله... حكيت لكِ من قبل باختصار عن الطبيبة التي كنت أحبها منذ ما يقرب من سبع سنوات ولم ألتقِ بها مرة

واحدة، وبأنها كانت حبي الأكبر والأجمل، لكني أعترف لكِ الآن أنه بعد أن أحببتكِ أصبحتِ أنتِ حبي الأكبر والأجمل؛ وإن مت الآن ستظلين حبي الأكبر والأجمل للأبد.

قبل أن أسافر إلى مدريد أعددت كل شيء لزواجنا، لم أخبركِ بهذا حتى أجعلها مفاجأة لكِ عندما أعود... اشتريت لكِ أحلى فستان فرح ووضعته وسط ملابسي في حجرة نومي... أخذت أوراق تعيينك من المكتب وباتصالاتي البنكية فتحت لكِ حساب بنكي جديد باسمكِ، وضعت لكِ فيه مليون جنيه، هو مهر زواجكِ... إن لم أنجُ من هذه العملية الجراحية فهذه النقود هي لكِ، حافظي عليها ولا تُنفقيها إلا فيما يستحق. (أترك لكِ هنا تفاصيل حسابكِ البنكي هذا).

لديّ شقة في المهندسين لا يعرف عنها أحد شيئًا ولا حتى وجدان؛ أذهب إليها عندما أريد الاختلاء بنفسي... أضع فيها كل ما أحب من كتب وموسيقى ولوحات وصور، بها صور أحببتها وعشت بصحبتها أيامًا سعيدةً، إن لم يُمهلني الموت الوقت الكافي كي أستبدلها بصور أخرى فسامحيني، وقومي أنتِ بهذه المهمة بالنيابة عني... هذه الشقة هي باختصار جنتي على هذه الأرض، أرتاح فيها كلما حاصرني تعب العالَم... وعندما فكرت لمن يجب أن أترك هذا المكان الخاص جدًا بي بكل ما فيه مما أحب، فلم أجد غير شخص أحبني بشدة وأحببته... أنتِ يا فراق... استخدمت أوراق تعيينك أيضًا وطلبت من المحامي أن ينقل ملكية هذه الشقة لكِ. (أترك لكِ هنا عقد الملكية باسمكِ ومفتاح الشقة)... انتقلي للعيش فيها، واجلسي على الأرائك التي كنت أجلس عليها، ونامي على السرير الذي كنت أنام عليه، اسمعي الموسيقى التي كنت أسمعها، واقرأي الكتب التي نظرت فيها.

لستُ أقل حبًا لكِ من تاج الذي ترك لكِ كل ما يملك قبل أن يرحل... أنا أترك لكِ القليل مما أملك، وليتني استطعت أن أترك لكِ أكثر من هذا، لكني أخاف عليكِ من وجدان.

منذ أعوامًا طويلة مررتُ بأزمة صحية طاحنة، وكنت على حافة الموت، لكني نجوت منه... وقتها فقدت الأمل في الحياة وفي كل شيء، وأبعدت عني القلب الذي أحبني وأحببته، وعندما رأيتكِ شعرت بأن هذا القلب قد عاد لي مرة أخرى... كنتِ تسأليني فيما بعد "أي زهرة هذه التي تشبهني بها؟" ولم أُجب مطلقًا على سؤالكِ هذا، لكن لا بد أن تعرفي... أنتِ يا فراق تشبهين حبي الأكبر والأجمل قبل أن أعرفكِ، اسمها "زهرة"، طبيبة وكاتبة، صدرت لها ثلاث

روايات، آخرها رواية بعنوان (الطابق الثالث من العتمة)، أحببتها بجنون، وجاء الموت ليجعلني أذبح هذا الحب بيديّ وأُبعدها عني، لم أرَها يومًا، لكني كتبت لها قصة حياتي كاملة وأرسلتها لها، تقمصت شخصية صديق لي وأخبرتها بنفسي من خلال الانترنت أني قد مت، أردت أن أرى تأثير موتي عليها بنفسي... أرسلت لها مع صديقي قصة حياتي التي كتبتها من أجلها هي فقط، وأرسلت لها بعض الهدايا التي كنت أشتريها لها خصيصًا ولم أستطع أن أقدمها لها بنفسي... بعد أن أبعدتها عني بإرادتي جاء الشفاء وابتعد الموت، وابتعدت هي؛ ولم أشأ أن أقتحم حياتها مرة أخرى، إلى أن جاء اليوم الذي رأيتكِ وأنتِ طالبة عندما حضرتِ مع وجدان للبيت، وقتها انخطف قلبي وكدتُ ألا أُصدق عيناي، أنتِ تشبهينها كثيرًا، وكأني أقف أمام صورة حية من حبيبتي التي لم أرَ عينيها إلا في الصور... منذ ذلك اليوم وأنا أتقصى أخباركِ من وجدان، وأتتبعك من بعيد في بعض الأوقات، إلى أن تخرجتما من الكلية، فأحضرتكِ معها لتعملي لديّ في المكتب، كي أراكِ أمامي باستمرار، ثم أحببتكِ كما أحببتها، ومع مرور الأيام أحببتكِ أكثر.

تمنيت كثيرًا أن أقابلها ولو لمرة واحدة، أن أخبرها أني لم أمت؛ لكني لم أستطع... خِفتُ أن أُشوه الحب الذي أحبته لي وأن أقصيها عني أكثر، خِفتُ أن أعترض طريقها في الحياة بعد أن حددت خطواته دون أن يكون لي فيه خطوة واحدة... إذا وصلكِ هذا الخطاب فحتمًا سأكون قد رحلت عن هذه الدنيا، وأود لو أنها تعرف باقي الحكاية وأنا لست هنا، وأنتِ خير مَن يتحدث عني... اذهبي إليها يا فراق، قابليها بالنيابة عني، أخبريها بباقي الحكاية التي لا تعرفها... أحضريها معكِ وأنتِ تزورين قبري، أريدكما أنتما الاثنتان، أريدكما معًا، حتى وإن كنتُ عظامًا في مقبرة.

في مدريد لي مسكنان، واحد تعرفه وجدان والآخر شقة صغيرة لا يعرف عنها أحد شيئًا، أريد أن تكون هذه الشقة لزهرة، وبما أني لا أستطيع تغيير ملكيتها باسم زهرة لأنني ليس لديّ أي مستندات خاصة بها، لذا فقد نقلت ملكيتها باسمكِ أنتِ، وأريدكِ بعد أن تقابلي زهرة أن تعطي لها المفتاح الذي أتركه لكِ هنا، وأن تنقلي ملكية هه الشقة باسمها، لم أُخبر وجدان بكل هذا لأني خشيت ألا تفعل ما أريد، لكني أثق فيكِ أنتِ.

أترك لكِ هنا في هذا الصندوق عنوان ورقم تليفون أستاذ حسن المحامي الذي يتولي المسائل القانونية لي، اذهبي إليه وسيساعدك في أي شيء تريدينه، أنا أخبرته عنكِ وأوصيته بمساعدتكِ في كل ما تحتاجينه.

كتبت أيضًا خطاب لزهرة أضعه هنا مع خطابكِ في الصندوق... بعد أن تحكي لها باقي الحكاية التي لا تعرفها، أعطيها الخطاب.

يبدو أنني غير قادر على استكمال حب حتى آخره، عندما أحببت زهرة في الماضي وبدأت أتخذ خطوات جادة للارتباط بها جائني المرض وأبعدني عنها... والآن بعد أن قمت بكل الاستعدادات لزواجي منكِ يأتيني مرض آخر لا أعرف حتى إن كنت سأنجو منه أم لا.

عند وصولي هنا إلى مدريد اشتريت لكِ خاتم الزواج وعقد من لؤلؤ لأجمل عنق... إذا حرمتني الأيام من أن أُلبسهم لكِ بنفسي فالبسيهم أنتِ، وتذكري أجمل لحظة مرت بيننا، تلك التي كانت في مصعد برج القاهرة.

فراق... أحبك

انتهت سطور الخطاب، ولم تنتهِ دموعي من الهطول، جرح موته انفتح مرة أخرى في قلبي وأخذ ينزف بغزارة... احتضنت الخطاب وقبلته، ثم ارتديت العقد والخاتم، وضممت يدي اليمنى على القلب المرسوم بها، ونمت وأنا أحلم بشفتيه تقبلاني كما فعل في مصعد برج القاهرة.

****

15

حبيب آخر ترك لي خطابًا ونقودًا وبيتًا، ورحل... ماذا يوجد بي حتى يترك لي الآخرين كل شيء ويرحلون هم... ألا يستطيع أحدهم أن يبقى معي؟

حكايته مع زهرة شغلت تفكيري، وأشعلت الغيرة في قلبي، هل كان يحبها هي في صورتي أنا التي تشبهها، أم أنه أَحبني أنا لشخصي؟ هل عندما قبلني كان يُقبل فيّ زهرة التي لم يستطع أن يراها يومًا؟

كم كنتُ ساذجة وأنا أتوقع أنه يشبهني بإحدى زهور الحدائق، لم يخطر مطلقًا ببالي أنه يشبهني بزهرة من لحم ودم، زهرة تشبهني في الشكل، في ملامح وجهي التي غابت عني... يجب أن أبحث عن زهرة وأراها حتى أرى نفسي، حتى يمكنني رؤية وجه يشبه وجهي الذي لا يمكنني رؤيته.... أيضًا عليّ أن أُخبرها بباقي الحكاية التي لا تعرفها، وأُعطيها الخطاب الذي تركه لها ولديّ فضول لكي أعرف ما بداخله، لكني لن أفعل هذا بالتأكيد، ويجب عليّ أن أنقل لها ملكية شقة أسبانيا التي هي باسمي حاليًا... وليتها تسمح لي بأن أقرأ قصة حياته التي كتبها لها ولم يحكِها لي.

ظللت لمدة أسبوع أحاول أن أُدرك أبعاد هذه الثروة التي هبطت عليّ فجأة؛ مليون جنيه، شقة في المهندسين باسمي، عقد لؤلؤ، وخاتم سوليتير... كانت كلها ملكي منذ عام ونصف مضى لكني لم أكن أدري بها، وكان من الممكن ألا أعرف عنها شيئًا لولا تدابير القدر التي لا أعلمها، والتي أحضرت لي ما أمتلكه حيث أكون... مازلت لا أعرف لماذا فعلت وجدان هذا وأعادت لي هذه الأشياء بعد كل هذا الوقت الطويل، يجب أن ألتقي بها وأسألها.

كنا نقترب من منتصف رمضان عندما ذهبت لزيارته في المقبرة، أحمل في يدي باقة ورد، وفي عينيّ دموع، وفي قلبي بقايا حب لم يمت... جلست على الأرض أمام القبر، وتركت كلماتي ودموعي تتحدثان بدون قيود:

"أحيانًا أندم على أني عرفتك، على أني أحببتك، ربما كنت أنا قدم الفراق الذي أبعدك عني وعن الدنيا كلها، لكن المعالج النفسي الذي ذهبت إليه قال لي أنه لا يجب أن أفكر بهذه الطريقة، ليس لاسمي أي سبب في فراق الآخرين، ولكل إنسان عُمْر معروف قبل حتى أن يُولد... كثيرة هذه الأشياء التي تركتها لي، هل حقًا أستحقها؟ الحب الذي أعطيته لك أخذت حبًا مقابلًا له، حبًا ملأ حياتي بالسعادة التي استكثرتها عليّ الأيام، فأخذتها وأخذتك.

كما طلبت مني في خطابك، سأبحث عن زهرة وأقابلها، وأحكي لها عنك وعن باقي الحكاية التي لا تعرفها، سأُعطيها الخطاب، وأنقل لها ملكية شقة أسبانيا، سآتي بها إلى هنا، سنأتيان لك معًا، قلبان أحباك وابتعدت أنت".

بعد حوالي ساعة من الحديث من طرف واحد، لململتُ شتاتي ونهضت من فوق الأرض، تركت باقة الورد على القبر، وتركت قُبلة على اسمه المحفور فوق شاهد القبر، وذهبت.

لم أكن أعرف من أين أبدأ، وماذا أفعل بكل هذه الأشياء التي تركها لي، فقمت بالاتصال بالأستاذ حسن المحامي الذي ترك لي اسمه ورقم تليفونه في الصندوق كي يساعدني ويقول لي ماذا عليّ أن أفعل... عرفني بمجرد أن ذكرت له اسمي، وطلب مني أن أذهب لمكتبه في المساء، وقبل أن يُنهي المكالمة قال لي: "لماذا تأخرتِ هكذا في الاتصال بي يا فراق؟"

عندما ذهبت إليه حكيت له لماذا تأخرت هكذا في طلب مساعدته، وكيف أني لم أعرف بهذه الأشياء التي تركها لي والد وجدان غير من أيام قليلة... الأستاذ حسن كما عرفت هو محامي مشهور وله اسم معروف، قد تجاوز الستين من عمره، أبيض الشعر، شديد الذكاء، عرفت منه أن والد وجدان لم يكن محامي العائلة فقط، لكنه كان صديقه المقرب، وقد حدثه عني كثيرًا، وأوصاه أيضًا عليّ في أحاديثه معه قبل أن يموت... راحل آخر يوصي عليّ أقرب أصدقائه إليه.

ذهب معي أستاذ حسن إلى البنك الذي لي حساب به بقيمة مليون جنيه، وعوملت هناك معاملة خاصة تتناسب مع حجم رصيدي لديهم... قمت بتحديث بياناتي في الحساب ليشمل رقم هاتفي وعنواني، وساعدني في استخراج كارت إئتمان أستطيع من خلاله سحب النقود من أي مكان به ماكينة صرف آلي... وسحبت خمسة آلاف جنيه من حسابي، وعدت للمنزل بعد أن شكرت أستاذ حسن كثيرًا على مساعدته، وأخبرته بأني سأقوم بالاتصال به مرة أخرى بعدما أقابل زهرة، وآتي معها كي يساعدني في نقل ملكية شقة مدريد من اسمي لاسمها.

طلب مني في خطابه ألا أُنفق هذه الأموال إلا فيما يستحق، وها هي أول خمسة آلاف منها أنفقها فيما يجب أن يكون، فيما يستحق، في صدقات على روحه في شهر الرحمة هذا... وزعتها كلها على الفقراء والمحتاجين، ووضعت مبلغًا منها في ظرف خطاب ألقيته من أسفل باب منزل أم سامح، هم فقراء لكنهم لا يقولون.

في اليوم التالي ذهبت للمهندسين، إلى عنوان الشقة التي تركها لي، ومعي إحدى المفتاحين الذين كانا في الصندوق والملصق عليه كلمة "المهندسين"... بناية ضخمة بها ما يقرب من عشرين طابقًا، وقفت في أسفلها أنظر لأعلى، ثم تقدمت من الباب الحديدي الذي يظهر من خلفه مدخل من الرخام الرمادي اللون الفخم... عندما رآني البواب قام من مكانه واقترب مني:

- أي خدمة يا هانم؟

- أنا صاحبة الشقة 21 في الدور السابع.

- البشمهندسة فراق؟

اندهشت عندما نطق اسمي:

- كيف عرفت اسمي؟

- البشمهندس الله يرحمه حدثني عنكِ قبل أن يسافر المرة الأخيرة التي لم يرجع بعدها... قال لي أنكِ ستأتين هنا عن قريب وطلب مني أن أُحضر لكِ كل ما تحتاجين له عندما تأتين... الله يرحمه البشمهندس كان أكرم واحد في العمارة... لكنكِ تأخرتِ كثيرًا في الحضور يا بشمهندسة.

- بعض الظروف التي منعتني... لكن قل لي كيف عرفت بخبر موته؟

- دكتور محمد جاره في شقة 22 هو الذي أخبرني.

- ما اسمك؟

- اسمي نعيم يا ست هانم.

أعجبني اسمه كثيرًا "نعيم"، يا له من اسم جميل، تركته يقول كل ما يريد وأنا أرد عليه بكلمات قليلة، وظل يحكي دون توقف عنه وعن صفاته الجميلة وكرمه البالغ وهو يصطحبني في المصعد حيث الدور السابع، فتح لي باب المصعد وخرجت منه لأجد نفسي في ردهة مستطيلة بها أربعة أبواب لأربعة شقق مختلفة، بحثت عن الشقة رقم 21 وكانت بجوار السلم، اتجهت ناحيتها يتبعني البواب، باب خشبي أنيق بني اللون ومقبض ذهبي جميل، وأمام الباب سجادة صغيرة عليها كلمة الترحيب (Welcome)... أخرجت المفتاح من حقيبة يدي وفتحت الباب، ثم التفت للبواب وشكرته، وأعطيته بعض النقود وأغلقت الباب ورائي.

أضأت الأنوار ووقفت في مواجهة ذكريات حية لحبيب راحل.

خلف الباب ردهة صغيرة بها مرآة ومنضدة، وضعت المفتاح عليها ثم نظرت في المرآة فطلت عليّ منها صورة السحابة، تركتها وتقدمت داخل الشقة، صالة متسعة مفروشة بأثاث جميل ومتناسق الألوان، إضائة صفراء دافئة، وعلى الحائط الذي أمامه أريكة كانت هناك مفاجأة في انتظاري، صورة بحجم كبير تشبهني كثيرًا، ليست أنا لكنها تقترب مني بدرجة ملحوظة، وقفت أمام الصورة وأخذت أتفحصها وألمسها بيديّ، نفس استدارة الوجه، نفس الأنف والحاجبين، عينايّ وابتسامتي، لا بد وأنها زهرة، كم نحن متشابهتان لدرجة كبيرة؛ لم يكن يخطر ببالي أن الشبه بيننا كبير لهذه الدرجة.

بجوار التليفزيون كانت هناك صورة أخرى لزهرة في إطار وردي اللون، وفي حجرة النوم صورة لها في إطار زهري اللون، وفي حجرة المكتب صورة لها داخل إطار بني، حتى في المطبخ وجدت صورة لزهرة في إطار أخضر، إنها هنا في كل مكان، تؤطر صورها الألوان المختلفة... كلما نظرت في اتجاه أراها تنظر لي بابتسامتها أو بجديتها، لها صور بكامل طولها وأخرى من منتصفها وصور للوجه فقط، هي أطول مني قليلًا وأصابع يديها تبدو أجمل، ترتدي في كل الصور ملابس أنيقة وأحذية جلدية جميلة... لنا نفس لون الشعر ونفس الطلة.

شعرتُ بغصة في حلقي، وبقعة كبيرة من الحزن كانت تزحف منتشرة على جدران قلبي، فهو لم يضع لي صورة واحدة في المكان، كل الصور كانت لزهرة... فهمت الآن معنى ما أخبرني به في خطابه من أن الشقة بها صور أحبها وعاش بصحبتها أيامًا سعيدة، وإن لم يُمهله الموت الوقت الكافي كي يستبدلها بصور أخرى فعليّ أن أسامحه وأقوم أنا بهذه المهمة بالنيابة عنه، فهمت الآن أي صور كان يتحدث عنها في خطابه، صور زهرة التي احتفظ بها حتى آخر يوم في حياته.

جلست في الصالة لا أدري ماذا أفعل بصور حبيبة غيري تملأ المكان من حولي... هل يجب أن أزيلها وأستبدلها بأخرى كما طلب مني؟ هل يحق لي أن أفعل هذا؟ تركتها مكانها حتى يمكنني التفكير بشكل أفضل، ثم تجولت في كل أنحاء المنزل، وفتحت كل النوافذ التي كان يُطل اثنان منها على جيران آخرين، والباقي يُطل على شارع فرعي هادئ تحفه الأشجار من الجانبين... في حجرة النوم مررت بيدي على ملابسه، ورششتُ فوق ملابسي من زجاجات عطره.

في حجرة المكتب كانت تُزين إحدى حوائطه لوحة بديعة لمركب شراعي ضخم وبحر متسع... وضعتُ بعضًا من الموسيقى التي كان يحبها، فملأت المكان بأنغامها الجميلة، ثم تصفحت بعض الكتب، وجلست على المكتب الذي كانت عليه عدة نسخ من كل رواية لروايات زهرة الثلاث، تلك التي كانت تنظر لي من فوق المكتب من داخل إحدى صورها.

المنزل عبارة عن قطعة من الفن والجمال، كل ركن فيه وكأنه يحكي حكاية، يُخبئ واره قصة يحتاج لمن يكتشفها أو يكتبها... كل تحفة وكل لوحة لا بد وأن ورائها ذكرى جميلة.

أخذت نسخة من كل رواية من روايات زهرة، وأغلقت النوافذ، ثم أطفأت الأنوار، وخرجت من الشقة وعدت لبيتي الذي أعيش فيه، لا أستطيع في الوقت الحالي أن أبقى هناك وكل هذه الصور تراقبني وتنظر في اتجاهي في كل مكان... يجب أن ألتقي بزهرة، لكن يجب عليّ أن أعرفها أولًا قبل أن ألتقي بها.

كنا نقترب من أجازة عيد الفطر، لذا فقد أخذت أجازة ليومين إضافيي،ن وأصبح لديّ أسبوعًا بأكمله أجازة من العمل، قررت أن أخصصه لزهرة وروايالها... بحثتُ أولًا في الانترنت عن كل روايات زهرة، وجدت أن لديها أربع روايات، آخر رواياتها كانت قد نشرتها بعد موته، لذا لم يكن منها نسخه في شقته، اشتريت الرواية الرابعة ثم قضيت عدة أيام وأنا أقرأ الروايات الأربع... أعجبتني كثيرًا طريقتها في الكتابة، ومزج الواقع بالخيال، خاصةً في رواية (دموع البحر)... كنت أتعرف عليها من خلال كلماتها، ثم بحثت عنها على الفيسبوك، ووجدتها بسهولة، وأرسلت لها طلب إضافة فقبلته.

دخلت صفحة زهرة على الفيسبوك، وقرأت كلماتها التي أعجبتني مثلما أعجبتني رواياتها، ثم تفقدت صورها، إنها نفس الصور التي تملأ شقته في المهندسين، حتى الصور الحديثة منها قبل موته كان يطبعها ويضعها في براويز أنيقة ويعلقها في بيته، كان مستمرًا في حبه لها، وربما كنت أنا الصورة الحية التي تُكمل هذا الحب.

طبعت بعضًا من صورها حتى يكون لديّ شيء يُذكرني بملامح وجهي المختفية، أخيرًا وجدت صورة قريبة مني يمكنني أن أراها بدلًا من هذه السحابة التي تتصدر وجهي ليل نهار... عرفتُ أيضًا من صفحتها أنها متزوجة ولديها ولد في حوالي الخامسة من عمره، زوجها طبيب أيضًا ولهم بعض الصور على الصفحة والتي تعكس حياة أُسرية سعيدة...

كم هو رائع هذا الفيسبوك الذي يعطينا صورة كامله عن الأشخاص الذين نود التعرف عليهم، دون عناء تحري وتقصي الأخبار من آخرين، صورة مدعومة بصور وأحداث وكلمات.

أيضًا من صفحتها على الفيسبوك عرفت اسم ومكان المستشفى التي تعمل به، وذهبت بعد انتهاء أجازة العيد لهناك، وأنا لا أدري ماذا سأقول لها، وكيف سأقص عليها حكايتي معه، أو بشكل أدق حكايتها... في المستشفى عرفت أنها لن تحضر في ذلك اليوم، لكنهم أخبروني بأنني سأجدها مساءً في العيادة الخاصة بها، أخذت العنوان وأخذت لباقي اليوم أستعد أكثر لهذا اللقاء في المساء.

عيادة هادئة غير مزدحمة؛ سجلت اسمي في دفتر الكشوفات وجلست أنتظر دوري... سبقني ثلاثة مرضى أعطوني فرصة لمراجعة أخيرة لكلماتي التي يجب أن أقولها، والتي لم أستطع أن أقل منها شيئًا.

بمجرد أن دخلت حجرة الكشف ووقعت عيناها عليّ حتى تجمدت مكانها متسعة العينين من الشبه الكبير الذي رأته بيننا، لم أندهش أنا مثلها لأني أعرفها جيدًا من الصور، لكن انخطف قلبي عند رؤيتي لها بعيدًا عن الصور الصماء، نفس الملامح الهادئة والنظرة الغامضة والشعر الأسود الطويل اللامع، ترتدي بالطو الأطباء الأبيض، تظهر من تحته بلوزة حريرية زرقاء... جلست على المكتب أمامها، فتمالَكت نفسها وقالت لي:

- تشبهينني كثيًرا، هل كنتِ تعرفين هذا الشبه الكبير بيننا قبل أن تأتي إلى هنا؟

- نعم كنت أعرفه... أنا صديقة لكِ على صفحتكِ في الفيسبوك.

- هذا يفسر عدم اندهاشكِ عند رؤيتي... ما اسمكِ؟

- لي اسمان، اختاري الذي يعجبكِ... فراق أو شروق.

- أفضل فراق، اسم نادر وجميل... فراق ماذا؟

- فراق جابر عبد الرحمن.

- كتبت اسمي في أعلى الورقة ثم سألتني عن عمري:

- 27 سنة.

- مما تشتكين يا فراق؟

أنا لا أشتكي من شيء وانعقد لساني فلم أستطع أن أقول أي من الكلمات التي راجعتها مرارًا في رأسي، ربما كان لديّ مرض في القلب من تعاقب الحب والموت عليه، ليتها تستطيع اكتشافه ووصف الدواء المناسب له، ربما كان دواء الحب هو حب آخر، أما الموت فماذا قد يكون دواءه؟ وجدت نفسي أقول لها:

- هل يُعتبر الحب مرضًا يصيب القلب؟

نظرت لي بصمت ثم قالت:

- دعيني أفحصكِ أفضل.

تمددت على السرير وأنا لا أدري لماذا أفعل هذا، أنا لستُ مريضة، ولستُ هنا بغرض طلب العلاج... تركتها تسمع دقات قلبي، وتقيس نبضاتي، وكنتُ أواصل النظر لوجهها الذي يشبه وجهي، والذي اشتقتُ إليه كثيرًا، وهي أيضًا كانت تختلس النظر لي من وقت لآخر، وكأنها غير مصدقة هذا الشبه الكبير بيننا.

بعد أن فحصتني بتلك السماعة الحديدية الباردة، كتبت بعض الأدوية على الروشتة، وشيء آخر على ورقة منفصلة، أردت أن أقول لها لا تكتبي دواءً لأني لن آخذه؛ لكني تركتها تؤدي دور الطبيبة حتى آخره، نظرت لي مرة أخرى وقالت:

- إذًا أنتِ واقعة في الحب، وهذا يجعلكِ تشعرين ببعض التعب في القلب.

- لا، ليس صحيحًا... لستُ واقعة في أي حب في الوقت الحالي.

- إذًا لماذا أنتِ هنا؟ وما هي المشكلة التي تعانين منها في قلبكِ؟

لم أستطع أن أرد أو أقول شيئًا، باغتني هجومها هذا عليّ في الكلام، فقالت هي:

- على العموم أنا أرى أنه لا شيء لديكِ... كتبت لكِ بعض المقويات وتحليل روتيني إذا أردتِ أن تقومي بعمله، فقط للاطمئنان على صحتكِ.

ومدت يدها في اتجاهي بالورقتين، فأخذتهما وقمت من مكاني وأنا أنظر إليها... حادة وعنيفة هي خلاف كتاباتها الرقيقة، تُرى ماذا كان يحب فيها؟

أردتُ أن أفتح فمي وأخبرها بما جئت لكي أقوله، لكني لم أستطع قول شيئًا ولا أدري ماذا حدث لي، ربما كان السبب هو أنه لقائي الأول بها، لذا فقد انسحبت من أمامها وقررت أن أعود في اليوم التالي بعزيمة أكبر مما أنا عليه... في المساء فكرت أن أكتب لها رسالة على الفيسبوك، لكن ربما أنها لا تفتح صندوق رسائلها، وقد لا تكون تقرأ رسائل آلاف الأصدقاء الذين تمتلكهم هناك.

لذا فقد عدتُ في اليوم التالي بتصميم أكبر، وطلبت من الممرضة أن تجعلني آخر الذين سيدخلون للطبيبة حتى لا يؤثر ما سأقوله لها على تعاملها مع باقي المرضى... عند رؤيتي كانت مندهشة لعودتي سريعًا هكذا:

- خير يا أستاذة فراق؟

- مهندسة فراق.

- لم أكن أعرف أنكِ مهندسة... خير يا مهندسة فراق؟ هل أصابكِ تعب آخر؟

- أنا لستُ مريضة، ولم أكن هنا بغرض العلاج.

طلت من عينيها العديد من الأسئلة، فبدأت في إجابتها قبل أن تنطق بها:

- أنا كنت مرتبطة بشخص كان يحبكِ، تعرفين أنه مات منذ عدة أعوام لكنه في الحقيقة مات منذ حوالي عام ونصف فقط... ترك لي ولكِ أشياءً لم تصلني إلا منذ عدة أيام فقط، وأُريد أن أعطيها لكِ كما أوصاني في خطابه.

أخرجت من حقيبة يدي الخطاب الذي كتبه لها، ومددتُ يدي به ناحيتها... أخذته في صمت، وقبل أن تفتحه قلت لها:

- لا أعرف ماذا كتب لكِ في الخطاب، وأعتقد أنه حكى لكِ عني بداخله، سأتركِكِ الآن مع خطابه، وأنا متأكدة أنه سيكون لنا أكثر من لقاء آخر.

كتبت لها رقم هاتفي على ورقة، وانسحبت من المكان في صمت، لأتركها مع الخطاب بمفردها.

****

16

ليلة شتوية باردة بعدها يوم أجازة من العمل، هذا ما أسميه رفاهية العيش... أعددت حساءً ساخنًا شربته وأنا أقرأ قصيدة لأمل دنقل (قصيدة ماريا) ثم انزلقت تحت الأغطية مصطحبة كوب شاي يتصاعد منه البخار، كوب شاي بمثابة الدفء ليديّ وقلبي وأخذت أشاهد فيلم رومانسي جميل نمت بعده لأرى أحد أحلامي الغريبة... حلمت بأني داخل مياه بحر أو ربما محيط، مياه تتلألأ بنور الشمس الذي يأتيها من أعلى، أسبح بداخلها مثل سمكة، لي جسم امرأة ووجه سمكة مثل وجوه باقي الأسماك التي كانت تُحيط بي، ذراعيّ كأنهما زعنفتين، وقدميّ ذيل مشقوق... كنت داخل البحر لحضور حفلة زفاف ملكة أسماك الماندارين هكذا كانوا يلقبونها، لها ألوان متعددة وزاهية، يلتف حولها أسماك من نفس النوع واللون، حضر الحفل أيضًا أسماك من فصائل وأنواع أخرى... كانت الملكة ترتدي اللؤلؤ وتجلس

فوق كومة من الطحالب الخضراء وخلفها شعاب مرجانية حمراء وبجوارها العريس الذي لا يقل جمالاً وألوانًا عنها... أخذت الأسماك ترقص وتدور حولهما وكنت أدور معها في رقصة مرحة زاهية الألوان.

استيقظت من الحلم سعيدة بتلك الحفلة المائية الملونة وقررت أن يكون غدائي اليوم سمك... ثم ذهبت للمرآة كي أطمأن إلى أن وجهي مازال سحابة ولم يتحول لوجه سمكة، فآخر ما أتمنى أن أصبح سمكة تمشي على الأرض.

أصبحت الأحلام الغريبة تحتل نومي في معظم الأيام، كل حلم منها يصلح لأن يكون قصة خيالية تُحكى... اعتدت عليها وأعتبرها من الأشياء الطبيعية بعد ظهور السحابة في وجهي، وأشعر بالقلق إذا حدث ولم أحلم حلمًا غريبًا لأسبوع على الأكثر.

اليوم كانت رحاب تراجع معي المشروع الإذاعي الذي ستشترك به في التدريب لاختيار أفضل ثلاثة مشاريع لتكون برامج حقيقية يتم إذاعتها في الراديو لمدة عام... كان مشروع رحاب هو برنامج إذاعي فكرته جديدة من نوعها، اسم البرنامج (الخزائن المفتوحة)... وفي كل حلقة سيقترح المستمعون فكرة البرنامج للأسبوع القادم ويتم التصويت عليها من خلال صفحة البرنامج، وأكثر فكرة ستحصل على عدد أصوات ستكون هي موضوع الحلقة للأسبوع القادم... أعجبتني الفكرة كثيرًا وشجعتها على أن تُعد لها جيدًا وبالتأكيد ستكون من الأوائل في التدريب.

أردت أن أعرف لماذا فعلت وجدان هذا وأعادت ما تركه والدها لي بعد كل هذا الوقت، أرسلت لها عدت إيميلات أطلب منها أن نلتقي ولو لبضع دقائق لكنها لم ترد على أي منها، حاولت الاتصال بها على الموبايل لكن في كل مرة تأتيني رسالة بأنه مغلق لذا فقد ذهبت للفيلا التي تعيش فيها، كان المكان يلفه الصمت والبوابة الحديدية مغلقة، تطلعت لأعلى وكانت كل النوافذ موصدة، نظرت للطابق الثالث الذي كان من المفروض أن يكون بيتي لولا موته، تخيلت كل الأثاث والأشياء التي اشتريناها معًا والتي لا بد وأنها هناك مرتعًا للغبار الذي يحتلها، وكأني اخترتها للغبار كي يستمتع بها بدلاً عنا، تخيلت نفسي أقف في إحدى تلك الشرفات وأتجول داخل تلك الحجرات، أصابتني غصة في حلقي وابتلعت مرارة هذه الذكرى ثم دققت على الباب الحديد فخرج لي البواب الذي يبدو جديدًا في المكان:

– أهلاً يا ست هانم... أي خدمة؟

- كنت أريد مقابلة بشمهندسة وجدان، هل هي موجودة؟

- مَن حضرتك؟

- أنا مهندسة فراق زميلتها في الكلية وصديقتها.

- بشمهندسة وجدان في أسبانيا... ربنا يشفيها.

- هل هي مريضة؟

- بعيد الشر عنك يا هانم عندها المرض الخبيث وحالتها خطيرة.

- متى حدث هذا؟

- بعد موت البشمهندس الله يرحمه بحوالي عام.

شكرته وأعطيته بعض النقود وذهبت وأنا كلي ألم لهذه الأخبار التي سمعتها عن وجدان، هذا يُفسر إذًا سر أنها أعادت لي الصندوق وكل ما تركه لي والدها لأنها أصبحت على حافة الموت... ليتني أستطيع أن أراها أو أن أخفف عنها بعضًا من آلامها.

استمرت محاولاتي في الاتصال بها وإرسال بعض الايميلات أسأل عنها وعن صحتها لكن لم يصلني أي رد عليها، فقمت بالاتصال بالأستاذ حسن المحامي فهو محامي العائلة ولا بد أنه يعرف تفاصيل أكثر عن حالتها، عرفت منه أنها أخذت بنصيحته ودخلت مصحة علاج في أسبانيا على أمل الشفاء من السرطان الذي اكتشفته في مراحل متقدمة... آلمني ما حدث لوجدان وأخذت أدعو لها في صلواتي بالشفاء، كذلك سامحتها على ما فعلته بي.

بعد ثلاثة أيام من لقائي الأخير مع زهرة وفي مساء يوم جمعة هاديء كنت أقرأ فيه رواية (كتيبة سوداء) وأنا أشرب كوب ساخن من الكاكاو عندما جائني إتصال هاتفي من رقم مجهول، رددت عليه لأجدها زهرة:

- مهندسة فراق؟

- نعم.

- أنا زهرة.

- أهلاً دكتورة زهرة.

- أرجوكِ قولي لي زهرة فقط.

- وأنا فراق فقط.

- هل يمكن أن نلتقي؟ لديّ الكثير لأتحدث معكِ فيه... فقد عرفت بعض الأشياء عنكِ من خطابه... لدينا أشياء مشتركة أهمها حبه لكلينا ثم الشبه الكبير بيننا.

- بالتأكيد يمكننا أن نلتقي... لكن أرجوكِ ليس في العيادة، بصراحة أنا لا أحبها.

- لا بالتأكيد ليس في العيادة، أنا أريد مكان مفتوح، مكان به خُضرة، ما رأيكِ بالحديقة الدولية؟ أنا غدًا ليس لديّ عمل، هل يناسبك؟

- ممتاز جداً.

- يمكنني أن أمر عليكِ بسيارتي في العاشرة صباحًا في المكان الذي تريدينه.

- وهو كذلك... اتفقنا، ليكن بيننا اتصال آخر في الصباح.

في اليوم التالي كنت معها في سيارتها نتجه للحديقة الدولية بالقاهرة، لفنا صمت كثيف ثم قامت هي بكسره ووضعت إسطوانة غناء في محرك الاسطوانات بالسيارة وبدأ صوت محمد منير يملأ المكان... (بكتب حروف إسمك بحبات الندى على كل أوراق الشجر... مين اللى يقدر يعشقك أدي أنا.. مين اللى يقدر يوصفك زى أنا.. يا حلم نفسي تحلمه كل القلوب.. يا أعلى إحساس شدني خلاني أدوب.. خلاني أحس إني بشر).

جلسنا في "برجولة" من تلك المنتشرة بالحديقة، يحفنا اللون الأخضر من كل مكان، وتطل علينا من أعلى سماء زرقاء منقوشة بسُحب بيضاء، سُحب تُشبه وجهي السحابة الذي لا يراه أحد غيري، هل يمكنني أن أخبرها بمشكلة وجهي؟ أصارحها بأني عندما أنظر إليها فأنا أنظر لوجهي الذي لا أستطيع رؤيته، لا أعتقد أن لديّ الشجاعة لأخبرها بهذا... كان الجو رائعًا وشمس الشتاء دافئة وانتظرت حتى بدأت هي الكلام:

- أولاً أشكركِ يا فراق على أمانتكِ وأنكِ أوصلتِ لي خطابه.

- لم أفعل إلا ما يجب فعله، كان من الممكن ألا تصلنا هذه الخطابات.

- كيف هذا؟

حكيت لها ما فعلته وجدان معي، حكيت لها قصتي معه ثم قلت لها:

- مازالت هناك شقة أسبانيا التي يجب أن أنقل إليكِ ملكيتها كما طلب مني.

- هل ترك لكِ شقة أنتِ الأخرى؟

- نعم، ترك لي واحدة هنا في المهندسين... مملؤة بصوركِ.

- صوري أنا؟!

- نعم، هذا ما وجدته عندما دخلتها، ليس فيها صورة واحدة لي.

- لكنه أخبرني في خطابه أنه أحبكِ مثلما أحبني وأكثر لأنكِ كنتِ الصورة التي لم يستطع أن يلمسها فيّ.

- هو هكذا بالضبط... أنا كنت الصورة وأنتِ دائمًا كنتِ الأصل.

نظرت لشجرة أمامها وكأنها تتأملها ولم تقل شيئًا... شعرت بالبرد يتخللني حتى العظام فطلبت منها أن نمشي قليلاً في ممرات الحديقة الواسعة وتحت هذه الشمس المسالمة، اشترينا بعض المشروبات الساخنة من الكافيتيريا وأخذنا نشربها

ونحن نمشي في الممرات بين اللون الأخضر الساحر وقد كان الهدوء والسكينة يغمران كل شيء وطلبت مني في صوت منخفض:

- لقد حدثني من قبل عن شقة المهندسين... هل يمكنني رؤية هذه الشقة وتلك الصور؟

- نعم يمكننا الذهاب إليها بعد أن نخرج من هنا... وأنا أريد أن أطلب منكِ شيء لو تسمحي لي؟

- بالتأكيد... اطلبي أي شيء.

- أريد أن أقرأ قصة حياته التي تركها لكِ... هل ممكن أن تعطيني صورة منها؟

نظرت للأرض قليلاً ثم قالت لي:

- وهو كذلك... سأعطيكِ صورة منها بشرط أن لا يقرأها أحد غيركِ.

- أعدكِ بذلك وأشكركِ.

خرجنا من الحديقة وذهبنا أولاً للمبنى الذي به منزلها، انتظرت في السيارة وصعدت هي حيث أحضرت دفتر قامت بتصويره في إحدى المكتبات القريبة وأعطتني صورة الأوراق التي احتفظت بها في حقيبة يدي وكأنها شيء ثمين أتلهف لقرائته، ثم ذهبنا لشقة المهندسين، في الطريق طلبت منها أن تتوقف قليلاً عند أحد الدكاكين حيث نزلت فاشتريت بعض زجاجات الماء وشاي وقهوة وسكر وبعض المقرمشات والبسكويت.

دخلنا الشقة ووضعت تلك المشتريات على المنضدة بالصالة ثم تركتها تتجول في الشقة وترى صورها الموجودة في كل مكان وتستدعي حضور حبيب كان يعيش هنا... قلت لها أنني سأقوم بتجربة المطبخ لأول مرة، وسألتها ماذا تريد أن تشرب:

- شاي.

ابتسمت بمرارة وأنا أتذكره وقلت لها:

- قال لي مرة أنني أحب الشاي مثل زهرة، وسألته يومها "وهل تشرب الزهور الشاي؟"... كان يقول لي كثيرًا أنني أُشبه زهرة وكان تفكيري يذهب في كل مرة لزهور الحدائق، لم أكن أعرف مطلقًا أنكِ أنتِ الزهرة التي كان يشبهني بها.

شربنا أكثر من كوب شاي وتحدثنا كثيرًا عنه وعنا ثم وجدتها تحدثني عن نفسها لأول مرة بكلمات قليلة ومختصرة، ربما أرادت أن تقولها للمكان هنا وليس لي:

- أنا وزوجي منفصلان منذ فترة ليست بالقصيرة ونحن الآن على أبواب إنفصال رسمي خلال أيام.

- هل دخلت امرأة أخرى في حياته أم أن الحب انسحب من بينكما؟

- الاثنان يا فراق... الاثنان.

جمعت كل صورها بالمنزل وأعطيتهم لها، طلبت منها أن أحتفظ فقط بواحدة ولم أذكر لها السبب وهي لم تسأل، لكنها سألت سؤالاً آخر:

- طلب مني في خطابه أن أذهب معكِ لزيارته في المقبرة التي تعرفي مكانها، متى يمكننا الذهاب إلى هناك؟

- الآن لو أردتِ ذلك.

- بالتأكيد أريد... هيا بنا.

كانت الشمس تقترب من المغيب عندما وقفنا نحن الإثنتين أمام قبره في صمت لعدة دقائق، قلبان أحباه وابتعد هو، إنها اللحظة التي أرادها قبل أن يموت، أن نأتي معًا إليه... ثم انسحبت أنا من أمام القبر وتركت زهرة بمفردها حتى تقول له ما تريد أن تقوله، تبكيه كما تحب، إنها المرة الأولى لها التي تقف فيها أمام شيء ملموس منه حتى وإن كان عظامًا في مقبرة.

وقفت أنا أمام قبر آخر لا أعرف الميت الذي بداخله لكني أخذت أدعو له ولجيرانه من الأموات ولأموات العالَم كله، وأدعو كذلك لنفسي بعد أن أموت... ظللت أقف هناك وأنا أجوب بخيالي عالَم الأموات بكل ما فيه من غموض وحزن وألم، أمواتنا وأموات غيرنا، وأموات لا نعرف عنها شيء، أجيال لا حصر لها من الموتى في كل مكان، حيث توجد الحياة يكون الموت، كل حي هو مشروع ميت حتمي التنفيذ... ظللت أُحلق بتفكيري هكذا من موت لآخر إلى أن وجدت يدًا توضع على كتفي فانتفضت في مكاني ونظرت لأجدها زهرة تقف بجواري بعينين حمراوتين من البكاء، فأخذتها وخرجنا من المقبرة.

اتفقنا على أنها ستقوم بالاتصال بي خلال أسبوع أو اثنين لكي نُنهي إجراءات نقل شقة أسبانيا إليها.

في المساء وأنا في شقة تاج كنت على موعد مع قصة حبيب آخر، أخرجت الأوراق التي قامت زهرة بعمل نسخة لي منها وأخذت أقرأها بتلهف لمعرفة كل حياته وكل تفاصيلها التي اختص بها زهرة ولم يذكر لي منها شيئًا.

شعرت بالغيرة من ذلك الحب الكبير الذي كان يحبه لزهرة، كان واضحًا في كل كلمة كتبها لها، وأصابتني صدمة من بعض أحداث حياته الذي كان يحياها قبل أن يقع في حب زهرة، وتلك الطريقة التي عرفها من خلالها، أراد أن يدخل حياتها لينسج حولها خيوط حب وهمي زائف فإلتفت هذه الخيوط حوله هو، لكنها كانت خيوط حب حقيقي صادق.

بعد ذلك اليوم وزعت أيامي بين شقة المهندسين وشقة تاج كما أحب أن أسميها، بالتأكيد شقة المهندسين أجمل وأكبر وأكثر راحة وبها ذكريات مازالت طازجة لكني لم أكن مستعدة بعد لترك شقة تاج، وكيف سأقول هذا الخبر للأستاذ مينا، وكيف سيتقبله؟ لكني يومًا ما سأذهب لأعيش هناك في المهندسين ومع ذلك لن أترك شقة تاج مطلقًا، يجب أن تبقى بكل ما فيها من قصته وأشيائه وذكرياته، لذا كان عليّ أن أنتقل من مرحلة الإيجار للشقة لمرحلة التمليك، رغم أنها شقة صغيرة وفي منطقة متوسطة لكني أحبها بشدة وأحب رائحتها والمآذن التي تُطل عليها، والجيران الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم... تحدثت مع صاحب المبنى الذي طلب مبلغًا كبيرًا لكي أتملكها، وافقت وسحبت من حسابي بالبنك هذا المبلغ وأخبرت أستاذ حسن المحامي الذي ساعدني في نقل ملكية الشقة لي، ورفض أن يأخذ أي أتعاب مني نظير خدماته الكثيرة هذه، وعندما زاد إلحاحي قال لي:

- اطلبي مني أي شيء في أي وقت يا فراق... أنا لي ديون عنده لا أعرف كيف أسددها، وعندما سألته كيف أرد له بعضًا مما يفعله معي قال لي: "ساعد زهرة وفراق إذا احتاجتا لشيء"... يبدو أن لكما مكانة خاصة جدًا عنده.

لم أفهم معنى كلماته ولا عن أي ديون يتحدث، كل ما فهمته أن زهرة ظلت تحتل مكانة متقدمة عني في قلبه حتى وهو يوصي أصدقائه... لكني لم أسأل أكثر وعدت لشقة تاج التي أصبحت أخيرًا ملكي وأنا أشعر بارتياح كبير لأن تاج وذكرياته سيظلون هنا باستمرار دون أن يهددهم شيء بالانتقال لمكان آخر.

ظللت أتابع مع رحاب نتيجة إختبارات التدريب الإذاعي الذي تشارك فيه، ثم وفي إحدى الليالي وجدتها تقوم بالاتصال بي لتقول لي هذا الخبر السعيد الذي كنت أتوقعه:

- شروق شروق شروق... أنا أسعد إنسانة في الدنيا اليوم... مشروع برنامجي فاز بالمركز الأول وستسمعينني عبر موجات الراديو أسبوعيًا لمدة عام كامل.

- ولأعوام أخرى كثيرة بإذن الله تعالى... أنا سعيدة جدًا جدًا بهذا الخبر... وانتظريني ضيفة دائمة على برنامجك.

بعد حوالي أسبوعين من لقائي الأخير مع زهرة ذهبت معها إلى مكتب أستاذ حسن المحامي الذي استقبلنا بترحاب شديد وهو ينقل نظره بيننا ويتسائل:

- هل أنتما توأم؟

ضحكنا وردت عليه زهرة:

- لا لسنا توأم، يوجد بيننا فرق حوالي عشر سنوات.

- سبحان الله... الشبه كبير جدًا بينكما.

ساعدنا أستاذ حسن في نقل ملكية شقة أسبانيا من ملكيتي لملكيتها، وقالت لي زهرة بعد أن أنهينا هذه الإجراءات أنها تفكر في أن تأخذ ابنها وتسافر لتعمل وتعيش في أسبانيا، ثم أضافت:

- سنظل على اتصال يا فراق، وإذا ذهبتِ لأسبانيا في أي وقت فإن لكِ بيتًا هناك.

- سنظل على اتصال يا زهرة... كوني بخير دائمًا.

أفهم تمامًا الآن حبه الكبير لزهرة، إنها كالطيف، شيء جميل يكون أمامك لكنك لا تستطيع أن تلمسه أو تستبقيه.

****

17

إنه الشهر السادس لي بدون وجه... وأريد أن أُشرك أحد آخر غير أستاذ مينا وأستاذ محمد إبراهيم والطب النفسي وعلم النفس في مشكلتي هذه التي لا تريد أن تنتهي... وليس هناك أفضل من دكتور رضا؛ دائمًا كلما رأيته أو تحدثت إليه يؤكد على أنني يجب أن أذهب إليه إذا احتجت إلى أي شيء؛ لكن ماذا قد أحتاج منه في محنتي الغريبة هذه غير نصيحة قد تفيدني وقد يكون فيها شفاء لاختفاء وجهي؛ لم أكن متأكدة تمامًا من أني أستطيع أن أخبره بهذه المشكلة اللامنطقية واللامعقولة التي أنا واقعة فيها؛ لكني في حاجة لأن أراه وأتحدث معه... قررت أن أذهب إليه بعد أن أنتهي من التدريب الذي سأقوم بالإشراف عليه وإعطاء جزء منه لإنهاء المشروع الذي أديره في العمل.

هذا المشروع مقره في الإسكندرية، وأنا لم أذهب لهذه المحافظة الجميلة من قبل، سمعت عنها كثيرًا لكني لم أرها يومًا أو أرى بحرها... أخذت معي كتاب (لا أحد ينام في الإسكندرية) كأفضل رفيق للسفر لهذه المدينة الجميلة، وقفت كثيرًا أمام البحر، وجدته متسع وأكبر من كل الكلمات التي قرأتها عنه، رومانسي أكثر من كل قصص الحب التي كان يجري فيها، غامض ومهيب أكثر من كل الغرقى الذين ابتلعهم... مشيت على شاطئه، غمست قدمايّ في مائه ورماله، غمست عيناي في أمواجه ولون مياهه، وتشبعت أذنايّ بصوته، كنت أنظر إليه وأتسائل: "ماذا لو كان وجهي قطعة من البحر، سائل ومتحرك ويمكنه أن يبتلع شمسًا بأكملها؟".

استمتعت كثيراً بهذه المأمورية، وقبل أن أذهب إليها كنت في حيرة أي الكتب سيصحبني في سفري... لكني وجدت كل الأماكن كتب مفتوحة؛ الطريق، الشوارع، المباني، البحر، والناس.

لم أرَ حلمًا واحدًا خلال الأسبوعين الذين قضيتهما في الإسكندرية، لكن بمجرد عودتي عادت الأحلام، ترى هل هذه الأحلام مرتبطة بمدينة ما أم بمكان ما؟... الليلة الأولى بعد عودتي رأيت حلمًا غريبًا... رأيت في الحلم حجرتي ممتلئة بفرقة موسيقية من العصافير مكونة من تسعة عصافير وببغاء، لم يكونوا في حاجة لآلات موسيقية للعزف عليها، فمناقيرهم كانت هي آلاتهم، على التسريحة ثلاثة منهم وفوق خزانة الملابس اثنان، على السرير أربعة، وعلى باب الحجرة يقف الببغاء بألوانه الجميلة، بدا وكأنه هو المايسترو قائد الفرقة، يُحرك جناحيه فتزقزق العصافير بأعذب الألحان المختلفة والمكملة لبعضها البعض... وفجأة أنهض أنا في الحلم من فوق السرير وأسير حتى المرآة، أنظر هناك لملامح الوجه التي ظهرت في السحابة، أُغلق العينين وأفتحمها فيندلع البرق في المكان ثم أصفر بالشفتين فيدوي صوت الرعد، ومن الأنف ينهمر المطر... ترتعد العصافير وكأن عاصفة قوية ضربت أجنحتها ويبكي الببغاء، تُفتح النافذة ويطير الجميع هربًا للخارج وأبقى أنا أمام المرآة أبرق وأرعد وأمطر.

اليوم خرجت للمشي كما اعتدت أن أفعل منذ عدة أشهر ثم تذكرت دكتور يوسف، الأخصائي النفسي، هو الذي جعلني أواظب على عادة المشي بتدريباته، لذا فقد قررت أن أذهب مرة أخرى إليه، شعرت بشوق للقاء آخر معه، أعرف أنه لا أحد يمكنه أن يُخرجني مما أنا فيه، كما جاءت السحابة لوجهي دون سابق إنذار أنتظرها أن تختفي أيضًا دون الخضوع لعلاج أو اتباع نصائح وتدريبات.

وجدته أكثر وسامة وبشاشة من المرات السابقة، لم يسألني لماذا اختفيت، لم يعاتبني على انقطاعي عن الجلسات، لكنه استقبلني بترحاب شديد وهو يقول:

- هل أقول فراق أم شروق؟

- فراق وشروق، لقد تصالحت مع اسمي ومع مرايا البيت أيضًا.

- ممتاز جدًا... لكن هل من جديد؟ هل عاد وجهك؟

- لا لم يعد بعد، لكني اعتدت على وجود السحابة مكان وجهي، لم تعد تسبب لي مشكلة كما كانت في بداية ظهورها.

- خطوة هامة على الطريق... عندما نتقبل ما نحن فيه نستريح أكثر... هل عملتِ بالنصائح التي اتفقنا عليها، الواجب الذي أعطيته لكِ آخر مرة كنتِ هنا؟

- نعم عملت بها جميعًا وساعدني هذا كثيرًا على أن أعيد ثقتي بالعالَم من حولي وأنفتح عليه ولو لبعض الوقت... لكني أصبحت أرى أحلام غريبة... أغربها رؤية أشخاص كانوا يعيشون في الماضي في البيت الذي أعيش فيه والأغرب أني لمدة أسبوع بأكمله كنت أرى وجوههم تحتل وجهي.

زم شفتيه وفتح عينيه في دهشة ثم قال:

- تطور خطير.

- نعم هو كذلك.

- وهل تأكدتِ من صحة ما رأيتِ؟

- لم أفهم السؤال... ماذا تقصد؟

- أقصد هل كنتِ ترين وجوه أشخاص حقيقية أم أشخاص ليس لهم وجود.

- نعم تأكدت، بحثت ووجدت أنها نفس الوجوه التي كانت تعيش في المكان من قبل.

- حقيقي ليس لديّ أي تفسير على شيء كهذا... هل مازلتِ ترين هذه الوجوه حتى الآن؟

- لا... رأيتهم لمدة أسبوع فقط في الأحلام وفي وجهي ثم اختفوا... لا أعرف حتى ماذا يريدون مني بظهورهم المفاجئ هذا في حياتي وأحلامي ووجهي.

- هل فكرتِ بالبحث عنهم ومقابلتهم؟

- لا يمكنني هذا بأي حال من الأحوال لأنهم ماتوا جميعًا في حادث إختناق في نفس البيت.

صمت قليلاً وهو يفكر ثم قال:

- في هذه الحالة أعتقد أنهم يريدون إيصال رسالة ما لكِ من خلال ظهورهم هذا.

- وأنا أعتقد هذا أيضًا، لكني لا أعرف ما هي وليس لديّ وقت للبحث أكثر في قصتهم... ربما لو ظهروا لي مرة أخرى أحاول معرفة المزيد عنهم.

- هناك إحتمال آخر أنه ربما كانت هذه الأسرة تظهر لكِ لأنكِ تفتقدين الحياة الأسرية... ماذا عن إخوتكِ البنات، ألم تفكري في البحث عنهم ومعرفة أخبارهم؟

- لا أعرف عنهن شيئاً من سنين طويلة، لا أتذكر حتى ملامح معظمهن.

- هذه ليست مشكلة، ابحثي عنهن وإلتفي حولهن، جزء من علاج مشكلتك قد يكون في صلة هذه الرحم المقطوعة.

هزتني جملته الأخيرة بقوة، هل أنا قاطعة رحم؟ لا يمكن أن أكون كذلك، أنا لا أعرف طريقًا لهن كي أصلهن... قررت أن أحاول البحث عنهن وإن لم أنجح في العثور عليهن سأكون قد حاولت على الأقل... ثم سألته سؤال أخير أردت بشدة أن أسمع إجابة مطمأنة عليه:

- هل تعتقد يا دكتور أنه سيأتي يوم وأتذكر فيه هذه الأيام وأضحك عليها، هل ستُصبح ذكرى لا تُنسى في حياتي؟ أقضي بعض الأمسيات أتذكر أيامي عندما كنت بوجه سحابة.

- أنا متأكد من أن هذا اليوم سيأتي، وستأتين لي هنا لنلتقط صورة لنا معًا وأنتِ بوجه فراق الجميل الذي أراه أمامي الآن.

في اليوم التالي كنت في المستشفى في مكتب دكتور رضا الذي استقبلني ببشاشته ومرحه المعتاد:

- أهلاً أهلاً يا بشمهندسة... أخيرًا رأيناكِ... كيف الحال؟

- الحمد لله بخير... كل عام وحضرتك بخير... غدًا أول أيام عيد الأضحى المبارك، توقعت ألا أجدك في العمل اليوم.

- وكيف لنا أن نهرب من العمل؟ عيد سعيد عليكِ.

- كنت أمر بالقرب من المستشفى فأردت أن أُسلم عليك دكتور رضا وأقول لك عيد سعيد.

وجدت نفسي أكذب بهذه الجملة التي نطقت بها؛ أنا هنا خصيصًا كي أراه وأحكي له مشكلتي... وكانت هذه بداية جعلتني أعدل عن رأيي في أن أخبره بمشكلة وجهي؛ تحدثنا في أشياء عامة وتبادلنا أخبار سطحية وتهاني محفوظة ثم قمت لأذهب عندما استوقفني وأعطاني ورقه كتب عليها شيئًا ما وهو يقول:

- هذا هو الإيميل الخاص بي... يمكنكِ أن تكتبي لي وتطمأنيني عليكِ في أي وقت؛ أفضل من أن أعرف أخبارك في المناسبات أو تأتين كالأعياد مرتين فقط في السنة.

ثم ضحك وضحكت معه وأخذت الورقة منه ووضعتها في حقيبة يدي... وجدتها فرصة رائعة أن أخبره عما أنا فيه من خلال الإيميل... سيكون وقعه أفضل بالتأكيد وأقل صعوبة بالنسبة لي، وتحمست للفكرة جدًا وقررت أن أبدأ في تنفيذها في المساء.

عندما عدت لشقتي أدرت الراديو لأستمع للحلقة الأولى من برنامج رحاب في الراديو وكان البرنامج في بدايته وصوت رحاب الجميل يأتيني منه:

أعزائي المستمعين: أهلاً بكم في أولى حلقات برنامج (الخزائن المفتوحة)... هذا البرنامج هو برنامجكم أنتم في المقام الأول، أفكاره ومواضيعه أنتم الذين ستختارونها... وأكثر فكرة ستحصل على تصويت هي التي ستكون موضوع حلقة الأسبوع الذي يليه، ستفتحون خزائن القلب والروح وتخبروننا بما فيها... وبما أننا في أول حلقة للبرنامج فقد اخترت أنا فكرة هذه الحلقة وهي عن (ورود وأشواك الماضي)، ماذا يُمثل لنا الماضي، كيف نتذكره، أين نخبأه بداخلنا،

ما هي وروده وما هي أشواكه، هل الماضي هو أنا الذي كنته أم أنا الذي أصبحت عليه... هيا قوموا بالاتصال أو بالكتابة على صفحة البرنامج وأخبروني عن الماضي في حياة كل منكم... وفي نفس الوقت اقترحوا أفكار لموضوع الحلقة في الأسبوع القادم وسيتم التصويت على الأفكار المقترحة لمدة 24 ساعة من الآن وبعد ذلك سنختار الفكرة التي ستحظى على أعلى نسبة تصويت... والآن سأترككم مع الأغنية التي هي من اختياري (شوقنا أكتر شوقنا).

أخذت أغني مع عمرو دياب وصوته الجميل وأنا أُعد كوب من الكاكاو باللبن... ثم دخلت على صفحة البرنامج على الانترنت وأخذت أقرأ الأفكار التي يطرحها المستمعون لحلقة الأسبوع القادم (نافذة للحلم - ما تبعثر منك – قلب للبيع – ألم وأمل – فراغات – علامة تعجب – جرائم صغيرة)... قمت بالتصويت على فكرة (ما تبعثر منك)... ثم قمت بالاتصال بالبرنامج لأقترح فكرة جديدة، لم أرد أن تعرفني رحاب لذا فقد وضعت قطعة قماش على السماعة حتى أجعل صوتي مختلف فلا تعرفني رحاب.

- أهلاً بالمستمعة الجميلة، نقول مين؟

- اعتبريني سراب، سأسمي نفسي سراب.

- أهلاً بالسراب الجميل... ماذا يوجد بداخل خزنتكِ يا سراب؟

- يوجد بداخلها شيء غريب، توجد سحابة.

- سحابة!... وماذا تحمل هذه السحابة في داخلها؟

- تحمل وجهي.

- خزنة فريدة من نوعها، لو أننا نمتك سُحبًا في داخلنا أو من حولنا.

- أو لو أننا نمتلك سُحبًا مكان وجوهنا... ماذا قد نفعل في هذه الحالة؟

- وكيف سنتعامل مع بعضنا البعض بوجوه على هيئة سُحب؟ فكرة أكثر من رائعة، أنا أول من سيقوم بالتصويت عليها للحلقة المقبلة لنتحدث فيها... أشكركِ يا سراب وأشكر خزائن أفكارك الجميلة.

أغلقت الخط قبل أن أعترف وأقول لها أنها ليست أفكار... إنها حقيقة تظهر أمامي في المرآة على هيئة سحابة في مقام وجه:

- لقد انقطع الاتصال قبل أن نعرف من سراب حكايتها مع الماضي... هيا افتحوا خزائنكم وقولوا لنا ماذا يوجد بداخلها؟ كل الخزائن من حولنا ممتلئة، ليس هناك وجود لخزينة فارغة أو لخزينة مصمتة... والآن فاصل مع الأغنية التي إختارها لنا مهندس الصوت لحميد الشاعري وصوته الدافئ الحنون (ليلى آه يا ليلى... أنتِ الغناوي الجاية).

تذكرت مع هذه الأغنية أن إحدى أخواتي اسمها ليلى، هي التي احتضنتني بعد موت أمي، كانت لي بمثابة الأم، تزوجت ليلى وتركتنا عندما كان عمري حوالي سبع سنوات ولم أرها مرة أخرى، ترى أين هي الآن وماذا فعلت بها الدنيا؟... أخذت أستمع للأغنية بحنين زائد وأنا أُحضر الصندوق الذي كان لأبي وبه أوراق ومعلومات قد تساعدني في العثور على أخواتي البنات، فربما عند عثوري عليهن يعود لي وجهي المختفي، يعود لي حنين الأسرة الذي أفتقده... أيضًا يجب أن أُخبر دكتور رضا وأتناقش معه في موضوع السحابة، فقد يساعدني بحل ما؛ عليّ أن أطرق كل الأبواب التي يمكنني طرقها.

واصلت سماعي للبرنامج ولاتصالات الآخرين وأنا أقوم بإرسال إيميل لدكتور رضا.

****

تمت

أمل الأصيل

مصر/أسيوط – يونيو/2019